قصص قصيرة

شمال شرقى الوطن

محمد عبده العباسي

الإهـــــداء

إلـــــى بورسعيـــــد ....

الزمنَ الجميل .

إلى روح أبى ... الذى علمنى فن الحكى ...

محمد عبده العباسي

تنويه

-الأشعار الواردة بين قصص المجموعة من التراث الشعبى

-يحظر نقل أو نشر أى من هذه القصص بأى الوسائل دون الرجوع إلى صاحبها وبإذن مسبق منه .

الموال

جعلت ترتق بقايا أسمالها .. طبع الزمن عليها بصماتــــه فأبلاها .. تقضم طرف الخيط ببقايا أسنانها التي أهلكها الدهــر .. كان شعرها المنفوش يقبع تحت طرحتها السوداء التـــي تغــير لونها .. كانت تغني لابن العروس :-

مسكين من يطبخ الفاس ويطلب مرق من حديد
مسكين من يعشق الناس ويطلب من لا يريده ..

ينظر إليها ولدها بعمق وهو يدلدل رأسه بين ركبتيه .. صوتـــها كان ناعماً كأنه يرنو إليه لأول مرة .. كانت ملامحها تشي عـــن جمال وحسن..

قال يفاجئها : يا أمه .. الله يروق بالك .. جايبه الكلام ده منين ؟

- الله يرحمه .. أبوك كان حافظ الكلام ده .. وكمان الســيرة .. والملك سيف .. وغيره ..
- بس انت لك كام يوم مش في حالتك ..
- مفيش .. شايله همك .. وبأحس إن " نفسي مكروش " ..
- بعد هالك يا غاليه .. تبات نار تصبح رماد .. خليها علـــي الله ..
- ونعم بالله .. بس .. يا خوفي منك وعليك ..
- اطمني يا أم العوضي .. حطي في بطنك بطيخة صيفي ..
- سارح البحر بكره .. إلحق نام لك شويه ..
- بمشيئة الرحمن .. الفجر .. ادعى ربنا يجبر بخاطرنا ..
- جبر الخواطر على الله .. ربنا يديك على أد نيتك ..
- عايزه حاجه قبل ما نام ..
- أعوزك طيب

كانت لمبة الجاز نمرة عشرة تسحب آخر خيوط ضوئها الضئيــل شيئاً فشيئاً من أثر قلة الجاز في عبوتها الزجاجية ..

الغرفة العتيقة تتغمر وسط هدوء قاتل .. سحب العوضي فتيلــها لأسفل .. نفخ فيه عم الظلام المكان .. لم يطاوعه النــوم .. ود لو يشعل سيجارة .. لكن حشرجة صدر أمه تحرمـــه منــها .. وهى تكره رائحة الدخان .. ازداد المكان هدأة إلا مـــن صـــوت حشرات نشطت ليلاً ..

قالت من تحت دثارها : مالك .. قلقـــان ليـــه ؟ .. وراك شــغل بدري ..

- مش جاى لى نوم ..
- بتفكر ف إيه ؟
- بأفكر فى خالق السموات والأرض ..
- واللا فى بنت العسكرى ..
- وبعدين يا أمه .. لسه ها نرجع لعنب ديبه ..
- قلبى محدثنى .. إنك ناوى على نيه .. والله أعلم ..
- نفسى أتجوزها يا أمه ..
- بعدين معاك .. ها أرجع أغنى الموال من تانى .. نام ..

الأهرام المسائى

١٩٩٩/٩/٥

دوائر دوائر

بدت غرفته ساخنة حارة .. أغسطس هذا العـام منفـر يلهب الأعصاب .. يحيل الجو أرقاً وسهداً ..
الغرفة كالتنور .. صار يتقلب فيها وكأنه على نار ..
مروحة السقف تلقى صهداً ساخناً كالغضب .. توزعه على شكل دوائر متقدمة .. زادت في نفسى ضجراً وسأماً ..
- يا إلهى ماذا عساى أن أفعل ؟ قالها متأففاً ..

......

رئيس التحرير يلهبه بسياط كلماته عـبر الـهاتف .. القـرص الدائرى فيه انطمست أرقامه كلما نظر إليه شعر بالاشـمئزاز .. تذكر أن عليه الانتهاء من التحقيق الصحفي المطلوب .. رئيـس التحرير زاد في توبيخه في المرة الأخيرة .. ذكره بالجهد الـذى بذله وبعلاقاته الخاصة التى سـاعدته علـى لقـاء المسـئول الحكومى ..
عليه الأن الذهاب إلى مقر الجريدة التى تقع بالقرب من الميـدان الدائرى .. خلال دورة عقرب الدقائق الكاملـة .. قبـل دوران المطبعة..

......

تقسو الشوارع على بنيها .. زادت حرارتها هـذا العـام عـن الأعوام السابقة .. دار حول عقبيه وهو يبحث لنفسه عن سـيارة تقله إلى العمل .. لهث خلف تاكسى استوقفه بعد لأى .. علـى حين غرة انزلقت امرأة تسبقه إلى الداخل .. تأمل الموقف قليـلاً .. كانت ساقاها تشعان من تحت تنورتها السوداء .. مال السـائق بحاجبيه وعبق عطر المرأة يسبقه إلى أنفه .. وثمـة مسـاحيق تبرز جمالها ..
سأل نفسه فى عجب :- ترى أين رأيتها أخر مرة ؟
تمرق السيارات مثل سهام مسددة .. الشوارع حبلى بالنـاس .. عاد أدراجه يبحث عن وسيلة مواصلات أخرى ..

شارع بيته ينسد بمئات السيارات حتى الزقاق الخامل امتلأ عـــن آخره .. انها ساعة القيلولة .. أصحابها الآن يسترخون من عنـاء العمل .. قال في نفسه :

- هل أدير محرك إحداها .. وليكن ما يكون ؟

لم يلبث أن تراجع عن فكرته المجنونة .. فقد بدت حمقاء علـــى حد قوله .. أشار لسائق آخر .. توقف .. ركب .. لم يفاوضـــه فى الأجر .. انطلق ليدخل معمعة السيارات التى يلفظها الميدان الذى بدا فى ازدحام رهيب ..

فجأة تعطلت السيارة .. كانت رائحة شواء قد انحشـــرت داخـل أنفه .. زقزقت عصافير بطنه .. لم يذق الطعام منذ ظهر أمـــس .. ثقب أصاب إطار السيارة .. ما زال الميدان الدائـــرى علـــى زحامه .. الميدان القديم تذكره .. باه ..

يبدو المتحف المصري القديم بقبابه كالحارس الأمين على عـــهدة التاريخ .. ثمة حراس كالديدبان .. السياح يتوافدون رغم قيـــظ الشمس ترتسم على وجوههم السعادة والبشر تأمل برج القـــاهرة على الضفة الأخرى .. تمنى الصعود إليه ولو وصل به الجنـــون إلى التسلق ..

......

استوقفته امرأة ذات شعر أسود غزير .. وعينان دعجـــاوان .. وفم يقطر عسلا .. سألته عن شارع عبد العزيز .. تلعثـــم فـــى الإجابة بينما تتقد سيجارتها كالوهج وتبث فوق رأســـها دوائـــر حلزونية .. أخبرها عن الطريق باشارات مختلفة مـــن يديـــه .. كانت كلماته سكرى .. ضحكت فبانت أسنانها واســـتدارة فمـــها تتلألأ بأحمر الشفاه الملتهب إنها المرأة التى رسمها في خيالـــه .. ثلاثون عاما بل تزيد هى كل عمره ولم يقترن بـــامرأة بعـــد .. رجته أن يصطحبها .. كانت سيارتها واقفة بالمرصاد .. دلفـــت إليها ومالت إلى الأيمن تفتحه .. أخبرها عن طريقه .. ارغمتـــه

بحلو حديثها على نسيان ذلك .. دارت حول الميدان .. طـارت تلج الشوارع .. أخيرا قالت : هنا .. نظر إليها فى عجب ، قـال : نعم .. ضحكت ضحكة عريضة ، قالت : أعرف .. ولم تعـره انتباها .. ولم تتبس ببنت شفة ..

- هل أعود من حيث أتيت .. قالها والطريـق أمامـه يـزداد وعورة وقبحا .. أنهى عمر سـيجارته الأخـيرة .. كـانت الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر ..ها قد حـان موعـد رئيس التحرير .. كيف له الهروب من غمـزه ولمـزه .. ناهيك عن تقريع مدير التحرير ..

......

مبنى الجريدة دائرى .. درجاته حلزونية .. لونه الكابى من فعـل دخان الشوارع .. يبدو مدخله رطبـا معتمـا .. ولـج منـه .. المصعد معطل .. ارتقى درجات السلم .. كان يلهث وكأنه فـى الستين من عمره .. لازالت المسافة طويلة .. تصبب عرقـا .. فجأة كان وجه مدير التحرير يستقبله .. رماه بنظـرة جافـة .. الأوراق في يده تبدو مبتلة من أثر الحر .. ارتمـى علـى أول مقعد له ..

كان الساعى يدفع إليه بفنجان القهوة المعتاد .. رمقه بنظرة حادة .. رشف من كوب الماء والقهوة لها طعم غير مستساغ ..

وجد علبة سجائر شبه فارغة فى درجه .. فحصها وأخر واحـدة منها كانت مختبئة أشعلها ودخانها يبعث رائحة أخرى .. داسـها بقدمه وسحقها ..

دق جرس الهاتف بجواره .. رئيس التحرير يدعـوه .. تنفـس الصعداء .. سار كمن يمشي على سلك مشدود ..

جرت على لسانه مئـات الأسئلة .. لحقه زميله فى طريقه إلـى المكتب .. المصباح الأخضر كـان مضـاء فـوق الـباب المغلق ..

من خلف نظارته المائلة على أرنبة أنفه تلقاه بابتسامة غامضة .. تلقف الأوراق .. ازداد حنقه وهو يدور بين السطور بعينيه .. خلع نظارته فى بطء دون أن يعره انتباها .. وضع الأوراق إلى جانبه .. أشار له بالانصراف ..

......

كانت الطرقة المؤدية إلى مكاتب المحررين تبدو غائمة .. ثمة ثرثرة تأتى من كل مكان حياه زميله فى قسم الحوادث .. كان يعد أوراقه وصور يرفقها بالموضوعات ..

......

إنسل إلى الشارع .. كل الطريق مغبرا إثر عاصفة دارت رحاها من حوله .. كانت أوراقه تدور فيها .. دوائر .... دوائر .... دوائر ...

......

شعر بشيء من الدوار ....

الأهرام المسائى

١٩٩٩/٩/١

شمال شرقى الوطن

يمتد البحر طويلاً .. يحتضن مدينته التى خطت ســطراً تتدثر بمياهه .. يتواصل هذا الأزرق فى أناقة .. تنام مدينته فــى وداعة الأطفال .. عند ناصية الوطن جهة الشمال الشرقى مطلــة من نافذة على المتوسط الرائع .. ثمة سفن قادمة .. يلمحها عنــد منتهى البصر .. هناك يلتقى الأزرق بالأزرق .. لــون الســماء والبحر .. تبدو السفن مثل طيور النورس وقد حطت فوق ســطح البحر فى سبيلها للولوج عبر القناة / الوريد ..

رويداً رويداً تنزلق السفن والليل يتسلل معلناً قــدومه .. حتــى إذا هداها نور الفنار العتيق .. اجتــهدت .. تأنت .. تــأنقت .. تألقت .. تأودت فى أعطاف القناة كسلى تلقى بالتحيــة والســلام على المدينة .. ويرفرف علم الوطن فوق أعلى ساريتها .. هكـذا هى المدينة .. وستبقى .. لها كل ما للمدن الجميلة مــن ســطوة ودهاء .. يرتقى بحارتها كل السفن العــابرة .. ويظــل تجــار العاديات يبادلون ركابها الهدايا والتذكارات ..

زرقة المياه الحانية .. أضواء الميناء المتلألئة .. نسمات البحــر الناعمة تملأ الصدر رقة وعذوبة .. ساعتها يمتلك المرء زمــام الأشياء .. ويبقى عشق الوطن متقداً فــى النفــس مثــل جــذوة مشتعلة تعقبها رائحة التاريخ بين ضلوعه ..

هو الآن يمارس لعبته الحلوة .. الإستمتاع بالأشياء .. فقد بســط الليل أجنحته على المدينة فأحاطها بهالة نورانية سرعان ما تمــلأ الجو جمالاً وتضفى عليه حسناً .

الماء شيء مستبد أيضاً يملك الأشياء مــن حولــه .. الســفن .. القوارب .. المراسى .. مراكب الصيد .. القناة تفصــل المدينــة عن إبنة حميمة عذراء تدعى بورفؤاد .. رغم اتساع العمــران فيها إلا أنها لم تزل منتجعاً هادئاً وملاذاً لكل العاشــقين .. لــها صــولة عميقة وجبروت طــاغ فى اجــتزاز ذكريــات الأيــام الجميلة / الطفولة .

تلقى السفن بمراسيها الثقيلة فترعد هدأة المكـــان .. تقلـع بعــد صعود الربان المصرى .. يقود الرتل العابر جهة الســويس .. الربان بحار جاد وقــديم .. لا يلقى الحديث جزافـــا .. هيئتـه الجادة .. الشعر الأبيض يبدو من تحت غطاء رأسه مثل نــدف الثلج يزيده وقاراً يصبح كالنجم المتألق .. تكفيك منه ابتسـامة أو بعض تحية .. عيناه كعينى صقـــر مــدرب .. تلتــف يــداه بحريـــر .. يعمل فى ثقة وأناة .. والسيجار لا يبارح فمه ..

......

شمس الصباح ألقت على المكان دفئاً بعد ليلة هاج فيــها الليــل وماج .. استطلع ماء القناة كان رقراقا صافياً .. يلـــوذ بعضــه ببعض .. لم تنهش صفحته الرياح .. ولــم يشق ســفينته لنــش عابر ..

مرر كفه فوق ذقنه التى اخشــوشنت واعتراهــا الشــيب مــرة واحدة ..

قال له صديقه الأثير وهو ينفلت بعيداً عن قبضة يده :

- خلاص راحت عليك .. زى ما راحت على اللى قبلك ..

كاد يلحقه بأذى حين كانت قبضته قد تكورت وهو بطل منطقـــة القناة فى " البوكس " أيام الشباب الذى ولى ..

......

حك شاربه .. لم يزل يدقق النظر ملياً .. كأنما الميناء يغط فــى نوم عميق .. راعه ذلك .. يحدث للمرة الأولى ..

تذكر أنه لم يكن قد ودع امرأته قبل النوبة الليلية بالأمس .. فقــد غادر البيت غاضباً ..

الآن فقط حادث نفسه : ما حدش بيحس بالواحد .. حتى الســتات عايزين تلال فلوس .. حوافز وبدل ســهر .. وبــدل ســفر ..

ومنطقة حرة .. ومرتب .. وأرباح كلها تسليم يد .. عايزه إيه تانى .. أسرق .. أنهب .. لأ .. مش أنا ..
قبل مغادرته ألقت زوجته بكل متاريس الحياة أمامه مرة واحدة .. ديون مستحقة بعد أيام .. الأقساط الشهرية .. الإيجار .. فاتورة الكهرباء الملتهبة .. فواتير الماء والغاز والتليفون .. مصاريف المدرسة الخاصة للبنت التى خانها امتحان الدور الأول ولم تلحق بالحد الأدنى للقبول بالثانوى العام .. مصروفات الولد الذى ألقى به مكتب التنسيق فى إحدى كليات الصعيد من أجل أن يصبح طبيباً .. خطاب الفصل لمدة أسبوع للولد الآخر أول أيام الدراسة وتقعر مدير إدارة المدرسة فى حديثه عن السلوك والنظام والإلتزام ..

......

- لو أن معى مالاً مثل مال قارون لإنتهى ..
قالها وهو ينظر إلى قباب مبنى هيئة قناة السويس الخضراء وقد بدأت الشمس تسكب فوقها لمعة حانية .. تراقص أمامه شىء من الحلم .. لكن سؤالاً طارده ..
هل يعمل الميناء اليوم ؟ ..
عاود أسئلته التى وصفها بالسذاجة .. الح عليه سؤال : لماذا لم أكن مثل هؤلاء الذين يقترضون من البنوك دون ضمانات ثم يفرون بالغنيمة ؟ ..
ضحك وهو يتصور نفسه مرتدياً البدلة الأنيقة .. النظارة السميكة .. الحقيبة السمسونايت .. السيجار الكوبى .. الذقن اللامعة .. السيارة البودرة .. اعلانات الصحف .. تهافت الغلابة .. اصطفاف الناس على اليمين والشمال بالتحية .. جاءت صورة زميله عصام .. أعفاه أبوه من التجنيد زمن الحرب .. بعد أن نجح فى الثانوية العامة رغم أنه غش منه

امتحان التفاضل والتكامل .. التحق بعدها بكلية التجــارة بينمــا أودى به مكتب التنسيق إلى الهندسة .

تراءت له صورتهما معا يوم مباراة الكرة على كأس المـــدارس الثانوية .. كان هو الكابتن الذى حمل الكأس بينما جاء عصـــام يقاسمه فرحة الفوز وانتزاع الكأس .. وعادت صورته بقوة وهو يخط استمارة الثانوية العامة حين قال :

-خطك أحسن من خطى .. بس حظك مش أحسن من حظى ..

منذ أيام ترامت الأنباء بفرار عصام إلـــى الخــارج .. نشــرت الصحف صورته .. والإنتربول يتعقب أثره ..

. . . . . .

عاد يتحسس رقبته .. حين اطمأن لوجـودها هدأ قليـلا وحمـد الله .. طرد من رأسه كل الخزعبلات .. اقتنص لحظة أضــاءت له الدنيا .. أشعل سيجارة بتلذذ .. جاء صوت زميله بأن مديــر إدارة الحركة يريده الآن .. فوراً ..

- مالك يا أستاذ فاروق .. مش عادتك .. فين روحك الحلـــوة وهزارك اللذيذ ؟ !!

- مفيش ..

- اسمع يا باشمهندس فاروق ده تكليف مــن القيــادة عشــان تصاحب المراكب المعدية الكنال لحد السويس ..

- اشمعنى أنا بالذات .. دى أول مرة يا أستاذ عبد العظيم ..

- لو عندك اعتراض اكتب .. قدامك ورقة أهى ..

داعبه حلم ..دقق فى الرجل ملياً .. حملق أيضاً فيــه ..إستسـلم للأمر .. توكلت على الله .. قالها وهو يهز رأسه .. كأنما سـمعه الرجل :

- يا باشمهندس فاروق أنت أقدم مهندس فى الحركة .. إمضــى هنا .. القلم قدامك اتفضل .. تناول القلم .. كأنــها الورقـة

الأولى التى يوقعها فى حياته .. جرت يمينـــه ســـريعا فـــى حركة متناغمة مع وجيب قلبه ..
غادر المكان لائذا بالوحدة لئلا تراوده نفسه بالتراجع ..
استوقفه زميل آخر : فضل دعاء الوالدين ..
جاءت صورة أمه .. ملأت المساحة أمامه ..كان فمـــها يتمتـــم بالدعاء ويردد :

- اللهم حبب فيك خلقه .. وحنن عليك القلوب القاســـية .. يـــا فاروق يا ابن قلبى .. طفرت من عينيه دمعة .. لقد مـــــرت عدة أيام لم يرها .. اعتراه شبه حزن .. لكنه قال :
- لا تؤاخذينى يا غالية .. مش عايزك تشـــوفى فـــى عينـــى ضعف أو هزيمة ..

. . . . . .

ارتأى موضعه فى السفينة الأولى .. كومة مـــن الأوراق تحـــت إبطه .. حيا القبطان المصرى .. جاء بوق المغادرة زاعقا ..
كان دفء الشمس يملأ المكان حنوا .. بدا مثـــل طفـــل يركـــب قطار الأحلام ليلهو .. بدا الميناء فى بانوراما .. ألقت الشـــمس بضوئها فوق أسطح البنايات الشاهقة .. جلس بجواره القبطـــان الأجنبى .. تمدد فى دعة وهو يرتدى زيا صيفيا رغـــم فصـــل الشتاء .. الغليون بين شفتيه .. حادثه بفرنسية ممطوطة .. بادلـــه الحديث .. القبطان الفرنسى بدا مثل سمكة جافة .. أخبره أنـــها أول مرة يعبر فيها القناة مع زوجته الأسبانية التى تزوجها حديثـــا فى برشلونة ..بارك له الزواج .. بزغت عينا القبطـــان تأتلقـــان فى بهجة وارتسمت على محياه ابتسامة .. دعاه لتنـــاول نخـــب الزواج .. لم يفرط فى الضحك مثل هذه المرة .. بدا متيقنـــا أن رجلا فى مثل عمره لم يذق طعم الخمر .. اعتذر .. وهو يؤكـــد لنفسه :

- دى ما حصلتش أيام الشباب .. أظن تبقى كبيرة يا هندسة ..
لم يفهم الربان الأجنبى .. كانت السفينة تشق طريقها .. فجأة بان له مكان جنبه .

......

- ياه .. اكثر من خمسة وعشرين سنة .. قالها لنفسه وعاد يكمل : دشم الرمل .. والموقع .. ومكان العبور .. والحفر البرميلية .. وقوارب الزودياك .. العقيد سيد .. الصول حسانين ..عاطف شعبان .. السيد الظواهرى .. ابراهيم حنا .. السيد المرغنى .. نصر فريد منصور ..

ياه .. كل حبة من تراب المكان ده عاشرتها .. عشت فيها بالدم والدموع .. بالضحك .. بالأمال والأحلام .. بنيت منها بيوت .. مصانع .. صواريخ .. مدافع .. دبابات .. لحد يوم العبور .. نظر إلى شماله .. كاد قلبه يثب من الفرحة وكأنه عاد طفلا .. هذا هو أول مكان وطأت قدماه فيه أرض سيناء .. داس خط بارليف .. كانت السماء قد تحولت إلى سقف من اللهيب والنيران .. والطائرات المصرية تدك حصون العدو .. والعلم المصرى يرتفع عاليا سامقا .. كان يتمنى أن يرفع هو العلم .. ردد مع الجميع ..

محمد أفندى رفع العلم .. قال فى نفسه :

- على كل حال أنا اللى رفعت العلم أو محمد أفندى .. مفيش فرق .. إسمى نبه إسمه .. حين هرب جنود الجيش الذى لا يقهر أمامه .. طوقهم بسلاحه .. لملمهم واحدا وراء الآخر .. سلمهم للقيادة .. كان عاطف شعبان يكاد يرقص .. والسيد الظواهرى يغنى خللى السلاح صاحى .. وابراهيم حنا يسقى السيد المرغنى من زمزميته .. مال بها الأخير نحو جندى إسرائيلي أسير يروى به ظمأه ..

حين عاد إلى بيته .. كان الهدوء يعتريه .. ظنت زوجته أن بـــه سوء .. أعدت طعام الغداء ..
مجموع الثانوى العام نزل نصف الدرجة التى تحتاجها البنـــت .. وخطاب الترشيح لطالب كلية الطب وافقوا على تحويله لأقـــرب مدينة .. والولد صاحب خطاب الفصل مـــن المدرســـة جاءتــه شهادة تقدير رياضى بعد فوزه ببطولة المنطقة فى العاب القـــوى

.. و ....
وجاء البريد ليعلن فوز المهندس فاروق عبد الحميد بجائزة أدبيـــة قدرها ثلاثة آلاف جنيه .. وتأجلت بعض الأقساط .. والمحـــامى أرسل له يطمأنه بقرب الفصل فى قضيـــة الوقـــف .. وشـــهادة الإستثمار الخاصة بالولد " المشكلة " فازت بمائة جنيه ..
وأحد الأقارب رد له نصف الألف الذى اقترضـــه منـــذ زمـــن

...و ...

الأهرام المسائى

١٩٩٩/١٠/١٢

من حكايات النورس العجوز

البحر .. متسع مثل سماء مفتوحـــة .. عريـــض يمـــلأ ساحات العين .. من منا لا يعشقه .. من منا لا يخشـــاه .. هـــو يحوى كل الأسرار والأحلام والحقائق والأوهام والرزق .. يبـدو فى بعض الأحيان حنوناً مثل صدر أم .. وفى بعـــض الأحيـــان غادراً .. يلوك بين أضراسه الأحبة والأهل .. كـــم مـــن ســـفن مخرت عبابه وشقت أمواجه ولم تحدث به جرح .. لكنـــه دون هوادة يختار ضحاياه / يلتهم ضحاياه .. (يذكر صاحبنا يـــوم أن داهم البحر مركب جده .. ابتلع الأشـــياء جميعـــاً .. الســـباحين المهرة .. أبوه .. ثلاثة من أعمامه .. أحـــد الأخـــوال .. زوج العمة .. بعضاً من ذوى قرباه)
كان الجد يجلس منتظراً عند "موردة الميناء " حين جاء الخـبر .. لم ينهزم .. ولم ييأس .. واجه المأساة بوجه صلـــب وعزيمـــة تفوق الجبال .. تقبل العزاء وقفاً.. وبجـــواره الصبـــى / أنـــا .. وطفرت من عينيه دمعة واحدة سحقها بظاهر كفه ..
بات الصبى يتيماً .. لاذ بحضن الشيخ .. ذابت مرارة اليتم حيـن صاحب جده ليعيدا البنيان .. كم مرة انهزم الجد وعاد صلبـــاً .. بين ليلة وضحاها أصبح الصبى رجلاً .. ذهـــب الطفـــل الـــذى بداخله ليلهو بعيداً.. وترك رجلا ترتسم على وجهه ملامح العمر الجاد .. يئد الشيخ فى الخطو فى حيـــن يـــزداد الصبـــى فتـــوة وشـــباباً .. ويردد الشيخ كلاماً بالصوت القريب مـــن الـــهمس يشبه كلام الحكماء ..
ثمانون عاماً.. بل يزيد عمر هذا الشـــيخ .. ألـــف (عرابـــى) البحر وألفه .. عاشا معاً .. يعرف عرابى أيام " النوات وعلـــو الأمواج .. وأنواع الريح .. طول الغاطس .. أنواع الأســـماك .. ماذا تعنى مقاسات شباك الصيد ..
حرفة أرهقت العمر .. وأرهبت القلب .. أشعلت الرأس شيباً ..

لكنها لم تحن الظهر إلا حين التهم البحر أعز الأبنـــاء .. تطفـــر من عين الشيخ دمعة بحجم البحر ..
كان يجوب ويمسح البحر بعينين كليلتين .. صنع الشيخ فى آخـو الأيام " تابوتا " ضفره ببقايا الأحبال .. شدد من خشبه .. وضعـه حيث عــلقه فى سطح البيت .. سألته ذات مرة واحـــــدة مـــن " نسوته " .. قال :

- الرحلة حين ينقضى العمر .. يحوينى ..

......

يحفظ عرابى أغانى المنشدين .. الســـيرة الهلاليـــة .. الظـــاهر بيبرس .. المــــلك ســـيف .. المـــوال الأحمـــر والأخضـــر والسباعى .. يجلس الصبى بجـــواره ويظـــل الشـــيخ يغنـــى .. والصبى معه يردد ..

حمامة الدوح نوحى وأظهرى ما بـــك
وعدى واندبى من فرقة أحبابــــــــك
لا تكتمى واشرحى لى بعض ما صابك
أظن ما نابنى فى الحب .. قد صابك

يردف الصبى مصفقا بروح الطفل الذى عاد فجأة واقتحمـــه دون وعى :

- الله .. الله يا جدى .. إيه العظمة دى .. فينك يا أبو دراع ..
يضحك الشيخ ويربت على ظهر الصبـــى : كـــان صـــاحبى الله يرحمه ..

......

مصباح الزيت المعلق عند رأس البيت .. يمـــلأه الشـــيخ حيـــن تعوزه الحاجة لأن يقرأ فى كتب قديمة ورثها أسلافه ..

- ياه يا جدى .. لسه بتقرأ ..

يشير إليه الشيخ بيده بأن يقترب .. يبدو خنصره الأيمن مكللا بخاتم فضى له فص أزرق .. يظل الشيخ ينقب عن الحروف .. يلضمها حرفا بحرف ليصنع منها الكلمات .. ينطقها على مهل .. كان يوزع عينيه بين الكتاب ووجه الصبى ..

- أنا أقرأ الكلام ده بسرعة ..
- بارك الله فيك .. المهم تحفظه ..

يقلع عن القراءة .. يباغته خاطر .. يعود لسرحانه المعهود .. يشير عليه أن يجهز " راكية النار " يلقمها قطع الفحم .. ينفخ فيها .. يمد ذراعه إلى " الجوزة " .. يأمر امرأته أن تبدل الماء " المصفر " ..

يضع الحجر بعد ما ملأه بالدخان المخلوط بالعسل الأسود " صنع يديه " يرص جمرات النار .. يظل يكركر .. يملأ فمه بالدخان .. ينفثه بعدها ليملأ سقف الحجرة ..

- أجيب لك سجاير يا جدى ..

يرمقه بعينيه فى حدة .. ورأسه تومىء بالرفض .. يصمت الصبى فى حين يعود الشيخ لغنائه .. يأتى الصوت عذبا .. مدرارا مثل ماء النيل حين يتدفق البحر لتلهث خلفه أسراب السردين القادمة فى الميعاد من غربى المتوسط .. فيعم الخير ويملأ كل بيوت الصيادين بالفرحة ..

- خد الكتاب ده .. صونه لا تفرط فيه .. وارثه عن أبويا وجدودي ..
- كانوا عشاق مواويل ..
- كانوا صييته .. جابوا النيل من جنوبه حتى حط بهم عند أشتوم الجميل ..
- واللا كانوا جايين سخرة ..
- ....

انقطع حبل الكلام لحظة .. ثم لحظات .. كان صوت الأذان قـــد ملأ الأفق لصلاة الفجر

- يا اللا بينا نصلى الفجر فى العباسى ..
- شفت الخديوى ..
- أقول الحق .. واللا أكذب .. لم تنظره عينى ..
- ....
- تسمع عن حسين كامل .. أنا وعيت عليه .. بعده " اتســلطن فؤاد " .. وسمعت عن ثورة سعد .. كان بينه وبينا بلاد ..
- يعنى كنت صغير ..
- ياريت ابويا سابنى فى " العلام " .. قال البحــــر " كارنـــا " وديارنا .. واللى يغير " كاره " يغير ملته ودينه ..
- أبوك كان صعب ..
- وكان دوغرى .. بالخصوص فى الحق ..
- وليه يا جدى سموك " العرابى " ..
- سألته يومها .. قال عرابى انقهر .. ولمحت الدمع ســـاعتها فى عينه .
- ما رديتش عليا يا جدى .. أبوك كان سخرة ..
- الحق .. كان فى جيش عرابى اللى انهزم فى التل الكبــير .. حكى لى عن خديعة الباشا لعرابى .. لما انوعد قام صدق .. قال لعرابى كلام غير الكلام .. ها يمنع مرور الإنجليز فى " الكنال " ..
- وانت يا جدى .. كان عمرك كام لما مات ..
- كنت فى سنك .. مات لما الحرب جت في " الصرب " ..
- وعشت عمرك كله فى البحر ..
- وبأحلم أخذ تارى منه ..

- وحد بيأخذ تاره من البحر ..
كان الجامع العباسي يقف سامقا بمئذنته نحو السماء مثل سهم .. والشيخ يقف بين المأمومين والصبي خلفه .. والإمام يصف الناس ..

......

- عارف يا جدى .. كنت مفكر الجامع العباسى ده بتاعنا ..
- ازاى .. ده انبنى فى عهد أفندينا عباس حلمى الثانى ..
- بتقول عليه أفندينا .. وفى محفظتك صورة عبد الناصر ..
- عبد الناصر ده حاجه تانية .. ده كوم لوحده ..
- بتحبه ..
- أمال .. راجل بملو الفم ..

باب ميناء الصيد مفتوحا على مصراعيه .. تمر منه عربات الأسماك .. الرجال .. العساكر .. اللصوص .. صعاليك الميناء .. هواة الصيد ..

- بالك يا جدى .. أنا مش عايز أموت فى البحر
- خايف .. لو خايف بحق .. تبقى بتحب البحر ..
- كان نفسى أشوف أبويا ..
- ما أنا أبوك .. اللى راح راح يا عين وشكوتك لله ..

......

تمتد مراكب الصيد بطول رصيف الميناء .. تتدلى منها المرساة .. والنهار قد طرح أنواره على الميناء .. ثمة قشعريرة تسرى فى الأبدان .. كان الشيخ يحيى بحارته ..اقتعد كرسيه المعهود عند طرف مقهى الدميرى .. يأتيه البرديسى بكوب الشاى والجوزة ..

- السحلب للريس الجديد .. ربنا يطرح البركة فيه .. يقولها الدميرى .. يرد أحد أقاربه : السحلب ده عندى يا عم الدميرى ..

يدافع عن هديته : عيب يا ريس حمدان .. المطرح مطرحنا والريس الجديد ضيفنا وقريبنا ..

يوافق فى ابتهاج : وماله يا عم الدميرى ..

. . . . . .

تقلع مركب الصيد فى رحلتها اليومية .. يقف الشيخ مودعا .. ملوحا بيده .. والريس الجديد فوق مقدمتها يشير لرجاله .. وهى تشق طريقها خارج حوض ميناء الصيد .. شيئا فشيئا .. تغيب المدينة عن أعين البحارة .. ومركب الصيد فى سبيلها للرزق .. يردد الشيخ كلماته الأخيرة : تروحوا وترجعوا بالسلامة .. يا رب عليك جبر الخواطر ..

كانت الريح تردد معه الدعوات .. بينما تهدأ الحركة فى الميناء .. وتودع النوارس المكان باحثة عن رزق جديد ....

الأهرام المسائى
١٩٩٩/١١/٣٠

الجرى حافياً بطول الشاطئ

تناهت إلى ذاكرته بعض صور الطفولة .. بـدت حقـلاً خصباً .. مرتعاً لسنوات الانطلاق واللعب .. كان يجرى حافيـاً بطول الشاطىء .. يطارد النوارس .. او يجلس فـوق رمالـه الناعمة ينتظر عودة أبيه من رحلة الصيد اليومية .. أو يرمـق بعينيه مقدم السفن العابرة للقناة .. يعدها على أصابعه .. تصعقـه بأبواقها حين تزعق مغادرة .. كان يحلو له الإستمتاع بصخـب البحر وأمواجه الهادرة تهمد وتتداعى زبداً عند قدميه هذا القـوى العتيد يستسلم وقد كان منذ لحظات يضرب وجه الماء ساخراً ..
همد الآن وخمد .. يعشق هو الإمساك بقوقعة كبيرة يقربها مـن أذنه .. يتخللها صوت البحر .. حتى إذا مـلأت الشـمس كبـد السماء لاذ بكابينة الغطاس يصعد سلالمها الحديدية ثـم يقتعـد مكانه وهو ينظر إلى الراية السوداء يضربها الهواء بعنف ..
حين يكون البحر طاغياً يخشى أن تأتى عروس البحر بصدرهـا العارى وشعرها المنثور وذيلها الطويل فتخطفه بيـن أحضانـها وتلج به بطن البحر .. فيفر بعيداً ..
يلجأ إلى حديقة جامع صالح سليم .. يرقب البحر وهـو يتمـرغ بين أعشابها التى تأتى برائحة نفاذة .. والنـوارس تحـوم فـى السماء فى كل اتجاه كأنما هى تبحث عنه .. هـو الآن يتذكـر الحكايات الكثيرة ..

......

كان له فى ذلك الزمن الجميل الكثير من الأصدقاء .. فجأة قفـز إلى ذاكرته واحداً منهم احتل مقعداً وثيراً وأزاح الآخرين .. كان مقعداً من خيوط الصيد صنعه وعلقه بين أشجار الحديقة ..
سعدون .. يهوى الصيد بالسنارة فى البحيرة .. ويعشق الركـض فى الشوارع .. ويطارد الفراشـات فـى الحدائـق .. ويأسـر العصافير من أعشاشها .. يهيم بالشرب من ماء المطر .. كثـيراً ما صدقه ..

وحين أراد أن يحاكيه ذات يوم انهمر فيه المطر مدرارا أصابتـه نوبة برد أرقدته أسبوعا في الفراش لم يسلم من تقريـــع الأهــل ولوم الأصحاب .
جاءه سعدون يزوره حكى له وهو على فراش المرض عن حفل عرس حضره بالأمس ولم يكن مدعوا- كالعادة — تناول فيـــه كمية من الطعام لم يذق مثلها قبل ذلك حتى أصابته التخمة..
ساعتها تمنى أن يكون معه..

....

توقف قليلا .. لقد مر الوقت مثل ســراب .. كـــان الشـــريط الوهمي قد انقطع حين جاء صوت الهاتف.. لم يرد أحد علـــى الطرف الأخر..
فجأة تذكر شتاء ذلك العام الذي مات فيه جمال عبد النـاصر .. كان قد عاد لمدرسته بعد طــول انقطـــاع.. مصطحبـــا خالـــه الجامعي المثقف.. صاحب الحنجرة القوية والصوت الجـــهوري والذي يحفـــظ عـــن ظـــهر قلـــب الميثـــاق.. وخطـــب عبـــد الناصر ..وقصائد صلاح جاهين وأشعار أحمد فؤاد نجم..
وقف خاله ساهما لا يحرك ساكنا وناظر المدرسة الثانوية يوبخـه على غيابه وتقصيره استأصل خاله الحديث وحكى للرجل عـــن عشقه للزعيم الذي مات في أول العام الدراسي.. فكأنمـــا هـــو معلم انقطع عن المدرسة دون وداع..
ربت الرجل على كتف خاله .. طمأنه إلى معالجة القصـــور.. حين مد خاله يده مصافحا ناظر المدرســـة.. كـــانت ذراعـــه قوية.. كان مزهو به..
ثمة علاقة بين خاله والزعيم .. طول القامة.. الإصـــرار.. الزعامة .. الإرادة.. العزيمة.. عشق هـــذا الوطـــن حتـــى الثمالة..

لم يزل يذكر بعدها يوم اعتقلت السلطات خاله ·· زج في السجن ·· صرخ في وجه الذين قبضوا عليه·· أن صورة الزعيم لم تزل تحتل صدر بيته··

حين رافق أمه في رحلة البحث عن خاله ·· لم تؤثر المحنة فيه ·· كان بهي الطلعة كعادته ·· لم تطرأ عليه أية تغيرات سوى ملابسه فقط·· قال خاله يومها كلاما لم يزل يذكره حتى الآن:

- هذا المكان يضم بين أروقته / زنازينه عمالقة الفكر والسياسة في الوطن·· لمح أناسا في شبه دائرة·· بينهم مناقشات حامية ·· بعضهم يلعب الشطرنج بقطع الورق·· تذكر منهم أناسا كانت صورهم تتصدر الجرائد- أقل بشاشة من الآن-··

······

ارتد بسرعة من رحلة الماضي البعيدة·· كانت ابنته وقفت جوار مكتبه·· تسأله أن يراجع معها مادة الإحصاء·· قال وهو يتلمظ غيظا:

- أمال المدرس الخصوصي بيعمل ايه ؟ !!

انصرفت فعادت تغمره التذكارات العتيقة·· ذات مرة قال لأبيه بعد أن أصيب بوعكة صحية عطلته شهرا عن الذهاب للمدرسة :

- بابا . . ممكن أخذ درس خصوصي عند الأستاذ دريد . .

نظر إليه وهو يقلب كفيه . . ثم أشاح بوجهه عنه :

- درس . . الخايب اللي بياخذ درس .. درس إيه .. عبد الناصر خلى التعليم ببلاش .. لأولاد الفقرا والأغنيا .. وانت بتقولي درس .. روح ذاكر ..

عاد ثانية لحاله .. وضع رأسه بين كفيه .. وصورة الأب معلقة على الجدار ..

قال يخاطبه :

- آه يا بابا لو شفت اللى أنا فيه .. مفيش مادة من غـــير درس .. تصور الثانوية العامة الجديدة .. سنتين دق الحجر ثانيـــة وثالثة .. دروس وامتحانات أربعة وعشرين شهر ..

انفلق الجدار بعد أن طار إطار الصورة فى الهواء .. وقال الأب بعد أن اقتعد كرسيه الكبير :

- ثانوية إيه اللى سنتين يا ولد .. انت بتقول كلام مش مفـــهوم .. وكمان كل مادة لازمها درس .. ربنا يكون فى عونـك .. عندك كام ولد ..
- ولدين وبنت .. المحروسة فى الثانوية العامة ..

قال متباهيا : وكـــمان سميتها محروسة .. الله .. علـــى إســـم ستك .. والله براوة عليك ولد كلـــك وفـــاء بصحيـــح .. الله يـــا يرحمك يا أمه ويجعل ترابك الجنة ..

- لأ يا بابا .. إسمها منى .. مش محروسة ..
- إخص عليك .. ولد عاق .. مين فى العيلة كان إسمها منـــى .. قول عيشة .. جمالات .. نظلة .. شفيقة .. مش منـــى .. قال منى قال ..
- يا بابا .. يا بابا ده مش مربط الفرس ..
- فرس .. فرس إيه .. ده انتوا صحيح تستحقوا اللى انتوا فيـه .. أنا ماشى لأحسن " أطق " .

ومضى عائدا إلى حيث جداره / مكانـــــه .. ودخـــل إطـــاره .. وجعل يحملق بشدة .. فغير إبنه مجلسه إلى موضع آخر ..

. . . . . .

جاءت صورة " نازلى " .. جميلة رائعة ســـرعان مـــا خبـــأت وجهها بعيدا حين سمعت صوت زوجته آتيا مـــن بعيـــد .. ثـــم تخفت خلف الستار .. كان يدقق فيها

قال مخاطبا نفسه : ياه .. نازلى ..
جاء صوتها همسا : أيوه نازلى .. فاكرنى يا معاوية ..
قال بلهفة : أيوه فاكرك ..

جاء صوت زوجته فوق رأسه : إيه مالك يا سى معاوية .. بتكلم نفسك ..

رد فى اجـابة جاهزة سريعة : مفيش .. كنت بـافكر بصـوت عالى ..

جففت يديها بفوطة المطبخ .. أشارت برأسها : الغدا جـاهز يـا أستاذ ..

" نازلى " قصة الهوى الأولى .. أيـام الصبـا .. والصباحـات البعيدة ..

كم افترشا مع رمال البحر .. وغنت لهما فيروز :
شايف البحر شو كبير .. كبر البحر بحبك .. .
وغنى لهما عبد الحليم : صافينى مرة ..
والشمس تبث ضوءها المتجدد .. لم لغة الملام سوى تلغرافـات بسيطة تضفى عليها العيون سحرا .. والدمى الصغيرة التى تجيد صنعها يلهوان بها .. تحيكها بأصابعها الرقيقة ويتفنن هـو فـى تلوينها .. كم انغرزت إبرة الخيط فى أناملـها الدقيقـة وضمـد جراحها بمنديله .. كانت تصفـه بـالطفل المشـاكس .. تمـلأ ضحكاته كل آذان الجيران الذيـن يـهيمون حبـا فيـه .. ولا ينسون ما كان يقدمه لـهم من زهور جميلة كـل صبـاح مـن حديقة منزله ..
الآن . . . . .
كل شيء تغير .. أصبح سعدون تاجرا لا يشق له غبار ..
المرسيدس " البودرة " .. الموبايل أحدث طراز .. آخر منتجـات العطور الفرنسية .. الملابس " الكاجوال " .. السلاسل الذهبية ..
حين قابله آخر مرة قال له فى لهجة استهلاكية :

- بتشتغل أديب .. يعنى إيه يا سى معاوية .. يعنى تكتب فـــى الجرايد .. أهي " متلتلة " فوق المكتب ما حدش بيقول لـــها انت فين ..
- وبعدين يا حاج سعدون .. إوعى تكون بتتكلم جد !!! ..
رفع حاجبيه مؤكدا : جد .. والله العظيم جد .. يـا ولـداه بعـد الجامعة والعلام مرتبك كام .. أراهن إنك بتشتغل بعد الظهر ..
قال : وفيها إيه٠٠ الشغل مش عيب٠٠ الإنســـان لازم يســعى عشان يحسن دخله٠٠
رد وهو يؤكد : العلام مالوش لازمه٠٠ التجـــارة شـــطارة٠٠ تسعة أعشار الرزق في التجارة زي ما بيقولوا٠٠
قال معاوية : اسمع يا حاج سعدون٠٠ التعليم أساسي لكل إنســان ٠٠ ولازم عشان أي مجتمع يتطور وبتعلم ان التعليم يبقى هـــو الأساس٠٠احنا بنشوف العالم بيتطور تطور رهيب٠٠
نظر سعدون في ساعته واستأذن منصرفا٠٠ ودلف أمام مقـــود سيارته وقدم له بطاقة كتبت بلون الذهب:
-هنا التليفونات والفاكس والموبايل٠٠ تحـــت أمـــرك فـــي أي وقت٠٠ سلاموا عليكو٠٠

٠٠٠٠٠٠٠٠

اشاح بوجهه بعيدا٠٠ كان الجامع التوفيقي تمتد منذنته الجديـــدة في سموق نحو سماء زرقاء ناصعة٠٠
لمح خاله الجامعي يترنح بين أكياس النايلون المكتظة بحاجيـــات بيته٠٠
كان يلهث وهو يبحث بعينيه من خلف نظارته الطبية عن ســيارة أجرة٠٠ سارع إليه والعرق يتفصد من جبينه٠٠ أشار لسائق:
-على فين يا بهوات٠٠ قالها السائق من مرآة السيارة٠٠
-شارع عبادي يا أسطى٠٠

-ما هو قدامكم.. واللا انتوا مش من البلد.. يـادوب الجـامع التوفيقي وقسم العرب

-يا سيدي الأستاذ تعبان..

-الأجرة جوز جنيهات..

-خش من شارع حامد الألفي..

-ماشي..بس أمون من "بنزينة" المنشية..

قال معاوية : الظاهر انت ناوي على سفر..

لم يرد السائق.. في حين قال خاله وهو يسترد أنفاسه اللاهثة :

-خلاص يامعاوية.. أهي فسحة.. ونتكلم شوية..

......

بزغت عند حافة جريدة الأهرام صفحة طواها خاله.. تفحصـها جيداً.. صورة للسيدة نازلي في عمود الإجتماعيات تعلن عـن مركز التخسيس الذي تمتلكه بعد عودتها من الخارج.. وتهنئـة من الحاج سعدون يبارك لأحد المسئولين تجديد الثقة فيه..

......

انقطع الشريط...

كان معاوية ساهماً واجما.. فجاة ودون مقدمات كان يقترب من الشاطيء.. علت ضحكاته.. تلقفها الفراغ الكبير.. ناوشـتها طيور النورس.. والأزرق الممتد يحمحم مثل فرس جامح.. تمنى لو يعاد طفلاً.. يجري حافياً بطول الشاطئ..

الأهرام المسائى

٢٠٠٠/٢/١٥

مثل زيفٍ لن يتكرر

انفلق باب البيت عند فتحه بنور الشمس ناعماً حانياً بعد أن دقت لبنى عليه جاء صوتها الملائكي رقيقا•• وسدت الباب بطول قامتها•• لم تزل الساعة على أعتاب السابعة صباحا•• كل صباح تتحد خطواتهما معا•• من البيت المطل على البحر بقامته القصيرة ذات الطابق الواحد .. إلى المدرسة في رحلة معتادة ذهاباً وإياباً ترتجف الأيدي إذا ما تلامست صدفة•• فيرتعش القلبان إرتعاشة عصافير صغيرة لم يعلها الزغب•• وترتسم في حدقات العيون كل أحلام العمر ••

- عارف يا عمرو أنا بحلم بإيه ؟ !!

تنطقها لبنى مثل نسمات رقيقة تخفف عن القلب وطأة حرارة الصيف .. وشعرها الأسود يتدلى مثل ستائر ليل ..

- أحلامك أوامر يا لبنى ..

يقولها متلهفا .. وينبلج النور أتياً من نصاعة در فمها .. كان البحر يمتد خلفهما في إبداع ..

- سبحان الله .. أملي أن الأيام تخلينا لبعض ..

قالها وهو يكمل حديثه .. كانت تنظر إليه وثمة وميض أخاذ يلمع في عينيها .. ثم أغلقتهما فكأنما تحيط فتاها بدرع واق من عاديات الزمن .. قالت :

- أمنية حياتي يا عمرو .. ياه .. الحياة من غيرك صعبة ..

. . . . . .

هو ماردها وفتاها المنتظر .. حلمها الجميل .. الأشياء الحلوة في حياتها .. يسبقها بعام دراسي واحد .. سوف يدخل الجامعة قبلها ..

تأتيه أمها .. تطلب منه المساعدة لبنى في دروس اللغة العربية ..

مبهورة لبنى وهى تنصت فى إمعان إلى فارسـها وهـو يلقـى قصائد الشعر بصوته الشجى وأدائه المميز ..
يرحل بها إلى وديان سحيقة .. وعوالم مجهولة ..
- ها تبقى مذيع يا عمرو .. صوتك زى محمد علوان ..
- أخجلتم تواضعنا .. لسه بدرى ..
تربت أمها على كتفه وهى تقدم له فنجان الشاى .. كانت تتحـدث فى بهجة :
- يسلم صوتك وتسلم لى يا عمرو يا ابنى .. لبنـى مبسـوطة خالص ..
- . . . .
يردد فى داخله آهة ممتدة طويلة كأنها آتية من عمق جب سـحيق .. ينظر فى عينى فتاته وهما تضمان لون البحر والسماء .. وتنفلت من بين شفتيه كلمات تظنها شعراً ..
آه كم أحبك يا ابنـة الهوى
صامتاً فهل تدركين ما العشق
خرجت من صمتها وقد لمعت عيناها من سـطوة مـا قـال .. فاهتزت له أوتار القلب ..
- ياه .. الكلام ده فى المقرر يا عمرو ..
بهت وصار يدارى خجله .. واحمر وجهه .. بينما تلألأت مـن بين شفتيها حبات الدر البيضاء .. تنهدت فى صوت كالسر :
- آه .. كم أحبك يا عمرو ..
رشف من فنجان الشـاى رشـفات متتابعـة دون أن يشـعر .. والخافق بين جناحيه ينتفض مثل شلال يتدفق منه نهر بأكمله .. تدانت المسافات .. امتدت يدها تلامس يده .. كـاد يفـرط فـى الضحك وثمة خدر لذيذ فى أوصاله يسرى ..
كانت رأس أمها الساهرة أمامهما تعلو وتهبط فوق صدرها ..

كان الليل /مرآة الجنون باسطا جناحيه على المكـــان .. وهـــدأة تخيم عليه .. ضوء المصباح المتدلى من السقف كأنما هو خريـر جدول من نور يتلألأ .. أو هـــو آت مـــن قمـــر يلـــوذ بعمـــق السماء ..

أفاقت الأم نصف إفاقة .. دعكت عينيها .. اعتذرت ثم اعتدلـــت فى جلستها .. لم تلبث أن " فـــــزت " تســـتند بذراعيـــها علـــى الأرض :

- الوقت اتأخر يا قلب أمك .. اتفضل من غير مطرود .. على عينى أمك تقلق .. تمنى لو غابت لحظات فأسكرت الأم فـــى نوم هانىء بقية العمر ..لأسكن لبنى المحار .. ولصنع لـــها بيتا على البحر .. ولسعى العمر كله لإسعادها ..

لبنى أنشودة الفؤاد .. حلم الأمس واليوم والغد ..

. . . . . .

فجأة تناثر سكان المدينة .. بدوا مثـــل نـــدف القطـــن البيضـــاء موزعة على طول خارطة الوطن .. هجرت المدينة بأسرها بعـد أن امتدت يد العدو الطائشة بطائراته تعتدى علـــى المواطنيـــن العزل من السلاح .. إنتقاما لحرب استنزاف أقضـــت مضـــاجع جنوده وانهكت قواهم بطول القناة ..

انسل وحيدا من بين أفراد الأسرة ليواجه امتحانا فـــى الثانويـــة العامة بعيدا فى العاصمة .. حيث شاءت الظروف ذلك .. كـــانت أسرته قد بعثرت هى أيضا ..الأب تم استبقاؤه فـــى المدينـــة .. والأخوة الكبار تم تجنيدهم .. والصغار لم يزالـــوا فـــى ســـنى الدراسة .. والأم حائرة تتابع كل شىء وهى تحلـــم بالشـــمل أن يلتئم ..

- الحمد لله .. سلمت أمرى إليك يا رب ..
- يا رب انصر أمة محمد على الطواعين اليـــهود .. وشـــتت شملهم يا رب .. حسبى الله ونعم الوكيل ..

قالتها عقب الصلاة .. ثم مسحت وجهها بكفيها .. قالت لعمرو :

- دعيت لك وأنا ساجدة .. ربنا يأخذ بيدك ويكرمك .. الثانوية العامة مسألة مصير اعمل حسابك .. نفسى تدخل سياسة واقتصاد ..

- بإذن الله يا ماما .. دى أمنية حياتى .. بس الحربية حلم بابا ..

- اللى يجيبه ربنا كويس .. ربنا يجبر بخاطرك .. وبعدين البركة فى إخواتك ماجد وراشد وصالح وخالك عدنان .. وسعيد قطب ابن عمتك واطفة .. ومروان سليم ابن خالتك .. وحسام العاصى خطيب نهى .. وعلاء سليمان ابن عمك .. ومجدى صموئيل ابن الجيران .. كلهم فى الجيش ما شاء الله ..

وجعلت تعد له حتى قال : كفاية يا ماما .. ما يحسد المال إلا صحابه ..

قالت : مستعدة أعدهم بالواحد .. ربنا ينصر بلدنا .. أنا عمرى ما أنسى الشهيد حمودة الصديق ..

قال وهو يكاد يذرف الدمع حزنا عليه : طبعا يا ماما فاكره .. الله يرحمه .. كان نوارة كل الشارع .. استشهد فى شدوان .. كان بطل ..

قالت وقلبها يرتجف .. وكانت تلملم بقايا دموعها المنحدرة بمنديلها :

- حاكم حمودة أخوكم فى الرضاعة .. عمرى ما أنساه .. كان مع أخوك راشد راضعين سوا ..

• • • • • •

شيعته أمه مغادرا القرية التى هجروا إليها .. دست فى جيبه بضع جنيهات .. اعتذرت عن قلتها :

- معلش يا عمرو .. بابا ميعاده آخر الشهر .. يوم ما ييجـــي من بورسعيد .. طوالى أخليه " يشـــقر " عليــك .. روح .. ربنا يتولى بك .. اوعى تسيب ولا سؤال عشان خاطرى ..

عند آخر منحنى للطريق الزراعى .. كان صوت أمه لــم يــزل يملأ أذنيه .. وتراقص أمامه طيف لبنى ..

كانت أمه تمنيه :

- لما تكبر .. من عينى دى وعينى دى أجوزك لبنى ..

هتف من أعماقه بصوت ملأ الكون صداه : أين أنت يا لبنى ؟!!

استند إلى جذع شجيرة تقيه حر الشمس فى انتظار سيارة تقلـــه إلى العاصمة ..

......

لم تفلح الغربة .. ولا سنوات التجنيد .. ولا زيـــارة معســـكرات التهجير .. ولا مكاتب وزارة الشئون .. فى الوصول إلى لبنـــى .. ذهبت كل الجهود سدى .. ولما عادت الطيور المهاجرة بعـــد انتصارات اكتوبر .. لم تعد لبنى .. كانت الزغاريد تمـــلأ كـــل البيوت إلا بيت لبنى .. بات الباب مغلقـــة مصاريعـــه .. عـــلاه غبار الأيام والبعاد .. بحث عنها فى عيون كل العائدين .. جـــاء صوت امرأة لتعلن .. لبنى تزوجت ابن العمدة .. وقالت امـــرأة اخرى : لعلها سافرت إلى الخليج ..و..

الأهرام المسائى

١٩٩٩/١٢/٧

حمدان هل يعود؟!!

دفع بخطاه الوئيدة للأمام بغية اللحاق بصلاة الفجر في جامع صالح سليم ٠٠ بعدها مضى يهمهم ما بين حوقلة وتسبيح ٠٠ حوله الشوارع خاوية والناس شبه نيام حياه الحوذى وناداه ٠٠ ارتقى بجواره سطح العربة " الكارو " ٠٠ اتصل الحديث ٠٠ انقطع لفترات طويلة ٠٠ حتى باب ميناء الصيد ٠٠ لم يثب كالحوذى ٠٠ بل تمهل فى حين تململ الحصان من وقفته فكاد يوقعه ٠٠ لولا أن أسرع " الصول جابر " نوبتجى البوابة أخذ بساعده ٠٠ دارت بين عيونهما لغة يعرفانها ٠٠ ضحكا ٠٠

قال الصول جابر متهكما : راحت عليك يا أبه محسوب ٠٠ زى ما راحت على الإنجليز ٠٠

ضحك محسوب مقهقها ٠٠ وبعد أن استتب له الأمر ورسا على الأرض بقدميه ٠٠ نظر إليه وقد شمر عن ساعده وقال : تشوف مين اللى يغلب أنا ولا أنت ٠٠

اقترب منه الصول جابر وربت على كتفه مداعبا : الدهن في العتاقى يا أبو حمدان ٠٠ شرد محسوب قليلا ٠٠ ثم مال ناحية اليمين ٠٠ لم يلق بالا لمكانه الخالى فى مقهى " الدميرى " ٠٠ ولم يعبأ بأحد ٠٠ كانت خطواته تدب على الأرض في مهل العمر الذى انصرم بعقوده السبعة ٠٠ قال وهو يخلع عمامته البيضاء ويدخل باب " دكانه " والولد " زغلول " يرش الماء في نصف دائرة أمامه :

- ياه ٠٠ أنت كمان يا جابر بتقول أبو حمدان ٠٠ ايش فكرك بيه ٠٠ دا أنت من كوم الدكة ٠٠ وما شفتش المناخ " الفوقانى " ٠٠ ولا تعرف كمان حمدان ٠٠

جاءه زغلول بكوب الشاى وقرص الكعك بالعجوة وأعد له " الجوزة " وصار ينفخ نارها وقال : أى خدمة يا أبه محسوب

انصرف أنـا بقه ‥ رايح المـوردة ‥ شويـــة والمراكـب داخلة ‥

أومأ له برأسه‥ انشغل قليلا بأكوام الشباك الجديدة تلالا فــوق بعضها‥ وبكرات الفلين عقودا معلقة على الجدار ‥ وخيــوط الحرير المصبوغ‥ والميزان القباني‥ انشغل أيضا للحظة في عد " مناقيد " الخيط التي أعدها للنبوي ابن عمه ليرتق بها شباك الصيد‥ وراح " يضفر "حبلا سميكا من بقايا حبال‥

‥‥‥

لم يهنأ محسوب منذ زمان ولم يفرح‥ وحيدا يعيش في البيــت العتيق الذي بناه من حر ماله‥ عرق السنين وجهد العمـــر ‥ راح في شبه نوم حين تذكر أن أولاده الذين انفضوا عنه كـانوا قد اجتمعوا على أن يودعوه دار المسنين‥ الأولاد الذين سقاهم زهرة العمر ورحيق الأيام يريدون أيضا أن يبيعوا البيت الـــذي لم تهدمه حروب الألمان ولا العدوان الثلاثـي‥ ولـم تنكسـه قرارات الإزالة الحكومية‥ ولم ينسه الناس يوم كـــان مخبئـا للفدائيين ‥

بعدها راحوا‥ انفرط عقدهم بحثا عن لقمة العيش ما بين خليـج النفط‥ وبلاد العم سام‥ وعاصمة النور ‥

كانت " رتيبة " أم حمدان‥ إحدى دعامات هذا البيــت حتــى أوسدها الثرى‥ يومها بكى طويلا‥ لم يأبه أحد مـــن الأولاد بزيارته أو تعزيته‥ بل هاتفوه‥ وأبرقوا له‥ وهــو الــذي لايعرف القراءة‥ نحا كـل الرسـائل جانبـا وألقاهـا تحـت وسادته‥ السنوات الأخيرة من عمر أم حمدان كـــانت محطـة العمر الذي أراد الفارس فيها أن يستريح ولكن هيهات‥ وأنـــى له ذلك‥ ولم يمهلها العمر وقتا للاستراحة‥ — شئ حالم أن تجد نفسك في غابر الأيام هانئا سعيدا‥

ضرب كفا بكف ٠٠ كان الصوت أتيا من المذياع الصغير ٠٠
لف مؤشره بسرعة ليستمتع بالقرآن الكريم بصوت مقرئه الأثير الشيخ محمد رفعت ٠٠
نظر إلى جاره المتولي يلقى عليه السلام ٠٠ رد عليه ٠٠
جاءه ٠٠ جلس قرب الباب ٠٠ عبأ أذنيه بحكايات طويلة ٠٠ مل بعضها ٠٠ وابتسم في بعض الوقت ٠٠

٠٠٠٠٠٠

حمدان هل تعود ؟

ابنه البكري ٠٠ أول الفرحة ٠٠ الزهرة التي ماتت في ينوعها ٠٠ أستشهد زمن حرب ١٩٥٦ ٠٠ كان على مشارف عامه العشرين ٠٠ غضا مثل أوراق الربيع ٠٠ انضوى تحت لواء المقلومه الشعبية ٠٠
حمل السلاح ٠٠
لم ييأس حمدان يوم حاصره جنود الأعداء مع ذويه في منطقة الجميل ٠٠ استبسل ٠٠ قاوم ٠٠ ألقى وسط الأعداء بأخر قنابله ٠٠
غافله أحدهم بطلقة أودت بحياته ٠٠ سقط شهيدا مضرجا في دمه ٠٠ تلثم جبهته أرض الوطن تودعه ٠٠
هكذا قال زميله عبد الواحد الذي أفلت من الموت بأعجوبة ٠٠ إذ باغت أحد قادة العدو في خيمته طعنه عدة طعنات بخنجره الأثير ٠٠ بعدها فر هاربا واختفى في الجبانات ليظهر بعدها مرتديا ثياب الصيادين عند كوبري الجميل ٠٠
أو ما محسوب وكان مبتسما اثر توالي الأخبار عن الصبي نبيل منصور الذي أحرق معسكرات الإنجليز ٠٠ لكن الرجل عاد يسحب ابتسامته وعلاه شبه وجوم :

- ابني حمدان مات ٠٠ مات شهيد يا عبد الواحد ٠٠لم يرد ٠٠ ولم يكن عبد الواحد إلا واثقا من كلام محسوب الذي أخبوه بأنه يعرف كل شئ ٠٠ وأن الناس في المدينة يتنفسون

قصص البطولة كالهواء ..
ساعتها كان محسوب يرهف السمع عند رأس قهوة " الفـلاح " المكتظ بالرواد.. والأنوار الخافتة تنبعث مـن جنباتـه وهـي تتضاءل شيئا فشيئا توقعا لوقوع غارات جديدة..
كانت حكايات القادمين عبر بحيرة المنزلة تطمئن النـاس علـى ذويهم ممن حملتهم اللنشات والمراكب مهجرين إلـى المطريـة دقهلية.. في حين بقى هو وحمدان .. والصغار مع أمهم كانوا قد وصلوا إلي بيت أخوالهم فى شارع الحمايدة ..
هل ينسى محسوب يوم أن أطلق حمدان ساقيه للريح .. لم يكـن قد بلغ السادسة عشر كان يوما بعيدا .. غاب زمنـا بالقـارب الصغير .. وسط أحراش البحيرة وبين المراحـات .. غفـت عين محسوب قليلا .. بات ليلتها هانئا .. كان الليل عميقا فـى البحيرة .. حالكا في ظلمته .. لكنه مطمئن إلى كونه يعـرف البحيرة كما يعرف أنامله .. لم يكن قلقا عليه ..
استيقظ محسوب .. فرك عينه طويلا .. ها قد عـاد حمـدان يحمل معه حصيلة الصيد وشباكا جديدة ..
قال حمدان : خالي حمزة عطاني كل السمك ده.. والغزل قاللى أعطيه لأبوك.. هز محسوب رأسه قليلا : ربنا يجبر بخـاطره حمزة.. طول عمره خيره سابق.. عارف يا حمـدان خـالك حمزة.. ينحط على الجرح يطيب..
أومأ حمدان برأسه.. ضحك.. ترامت ضحكته فـي أرجـاء البحيرة..تجوب بـر السـماريات وبـر الكنيسـة والدوانـي والحمامات وبر معيبد حتى وصلت إلى جزيرة سيدي عبـد الله بن سلام.. وكانت ثمة أصـوات للطـير تـأتي لتغازلـها.. وتراقصت الأسماك في جحورها وابتسـم النسـيم.. وكسـت البهجة وجه البحـيرة.. أعلـن حمـدان أنـه أصبـح الآن رجـلا.. وأن شاربه قد

اختط ٠٠ضحك الشيخ ضحكته المعهودة وهو يبـــارك خطواتـــه ويضمه إلى صدره أكثر ٠٠ حك محسوب شعر لحيته الكثيفة وقد غزاها الشيب٠٠ ردد في صدره :

- الموت علينا حق٠٠ لكن روح حمـــدان بتهفـــهف عليـــا٠٠ الظـــاهر قربـــت أودع٠٠ فـــات عليـــه فـــي الدكـــان حسن٠٠المرابي٠٠ الذي يقرض الناس" بالفايظ " قـــال فـــي لهجة ملؤها الكيد والحسد : مالك يـــا محســـوب٠٠ عـــايز فلوس٠٠ واللا أنت مخبي "الكروة " تحت البلاطة٠٠ بكـــرة تحتاج وتمد إيديك٠٠ ساعتها أخليك تبوس القـــدم٠٠ ثقـــل محسوب على شماله٠٠ كان وجه ماء البحر لامعـــا تحـــت وطأة ضوء الشمس ٠٠وراح يغني٠٠ وكان صوتـــه رائقـــا مثل الصباح

بخت الخسيس إنعدل ٠٠لما الزمن غـــــــلاه
ورخص إبن الأصول٠٠ وف قدرته غـــــلاه
فردت قلعي عشان أرحل٠٠ خانتني الريـــــــح
ودرست جرني طلع٠٠ تبنه بلا غـــــــــلاه

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

قال السيد الصاوي وقد تناهى إلى مسامعه غناء محسوب :

– الله الله يا أبه محسوب٠٠ والله ولا أحسن صييت فى البـــــر كله ٠٠بس مش عوايدك النهاردة كده شايفك حزين ٠٠ دا أنـــا جايب خبر إنما إيه

- الله يجعل المخبر لطيف، ٠٠ خير يا سيد ٠٠ إيـــه حمـــدان جاي٠٠ صمت السيد الصاوى ٠٠ ازدرد ريقه واحتبس فـــى حلقه ٠٠ حملق فى الرجل كثيرا :

- كلام إيه اللي بتقوله يا أبه محسوب٠٠ سلامتك٠٠

رد دون إفاقة : يا سيد أنا شايف حمدان جاىمن جهة الجميل٠٠

عاد يقول : إيه رأيك لو ٠٠
قاطعه محسوب : ماليش رأي٠٠ خير إيه اللي جايبه يـــا ابـــن لواحظ ٠٠
قال وقد احمر وجهه : ماشى يا أبه محسوب٠٠ الحكومة جــابت تعويضات ٠٠بلع محسوب ريقه٠٠ مسح دمعة انذرفت فجــأة٠٠ لف جبهته بعمامته٠٠ مرر إصبع سبابته تحت عينه٠٠ نظر إلى السيد الصاوى بعمق ٠٠
-تعويضات عن حمدان ٠٠
-لأ٠٠ يا أبه محسوب ٠٠ تعويضات عن المركب ٠٠
-يوه ٠٠ أعمل بيها إيـــه٠٠ خـــلاص ٠٠ اللـــى راح ٠٠ راح ياعينى وشكوتك لله ٠٠ يقلب محسوب بين يديه لفافات الحبـــال ٠٠ قطع الرصاص المسبوكة ٠٠ أجولة الفلين بعـــض الشـــباك المهملة٠٠ تلال البقايا٠٠ ثمة رائحة لأشياء قديمة٠٠ " جراكن " زيوت بوصلات مستهلكة٠٠ بقايا خردة حديد٠٠
الكشك الخشبي الـــذي جعلـــه دكانـــا٠٠ يقبـــع بجـــوار ســـور الميناء دون لافته ٠٠ يغلقه بمزلاج كبـــير ٠٠ دائمـــاً يســـاعده الـــولد " زغلول " ٠٠ لا شئ على جداره غـــير آيـــة قرآنيـــة تحث على الإستعانة بـــالصبر والصـــلاة ٠٠ وصـــورة لعبـــد الناصر نزعها من جريدة قديمة ٠٠
الكثـــير مـــن الصيـــادين يمـــرون عليـــه ٠٠ يلقـــون اليـــه بالتحية ٠٠ يستمر محسوب فى صناعة الشباك ٠٠ وحـــده ٠٠ يبيعه " بالأقة " ٠٠ أو يقيســـه " بالقامـــة " يمســـك " بالمنقـــاد " الضخم يدكه بين " الماجه " وطرف إصبعـــه ٠٠ يغرســـه ٠٠ يســـحبه يـــدور بـــه يعقـــده ٠٠ ينتقـــل بعدهـــا مـــن عين إلى عين ٠٠ يوازن بين " اتســـاع " العيـــن ٠٠وتناســـق الألوان ٠٠وكأنه ينوي مغازلة الأسماك التى ستـــقع فى براثـــن الشـــباك ٠٠ هنـــا أحمـــر ٠٠ أصفـــر ٠٠

أزرق ··برتقالى ·· أبيض ·· أخضر ·· هكذا يعيد الكـــرة مرة ومرة حتى ينتهى ··

يبتهج حين يجئ النبوى ابـــن عمه ·· يشـــترى منـــه تـــلال الشباك ·· يدفع كثيرا ·· يعد محسوب الزيادة ··

- لأ يا نبوى ·· حقى وكفاية ··
- يا أبه محسوب ·· أنت أبويا ·· مالى هو مالك ··
- الله يزيد من نعيمه ·· الله يرحم والدك ··
- يا أبه محسوب أنت البركة ·· بالك لما أشوفك ·· أشـــوف أبويا ·· يا ريحة الغاليين
- إياك علمت بالخبر ··
- التعويضات ··
- لأ ·· حمدان ··
- ياه يا أبه محسوب ·· حمدان شهيد ·· والشهداء عند ربنـــا فى الجنة ··
- روحه بتهف عليا ··
- الله يرحمه ·· ويرحمنا ··

قليلا ما توافق عودته ·· أخبار تأتى من بنيه ·· لا يعبأ ·· لا يهتم ··

- من منهم مرة يســـأل ·· رتيبـــة مـــاتت ·· أعمـــل إيـــه فى دار المسنين ·· أنا خيرى كافي شرى ·· عايزين منـــى إيــــه ·· يـــــا رب أمـــــوت علـــــى فرشـــــــتى ·· ولا تتقل عليها بدن ·· يا رب ··

أغمض عينيه ·· راح فى سبات ·· أفاق لحظة ثم قال :
حمدان يمكن يعود ·· أظن ·······

عينان مفتوحتان بإتساع المدى

كعادته ‥ يستيقظ " حميد " مبكراً ‥ يستطلع الأشـــياء من حوله‥ الضوء الخافت لا يبوح بسره‥ يمشـــي متمـــهلا يتلمس خطوه حتى إذا ما اهتدى‥ يفتح الباب‥

لم تكن " العشة " التي يقطنها " حميد " بأكثر من غرفة واحدة‥ صنعها من بقايا أخشاب مراكبه التي بناها على مدى عمـــره‥ تحتل جنباتها شباك الصيد‥ في أحد الأركان مرســـاة قديمـــة أبلاها الصدأ ‥ حبال ملقاة دون عناية‥ قطع أخشـــاب غـــير ذات قيمة ‥" العشة " أشبه بقبو‥ أو مخزن قديم أكثر منـــها مكاناً للعيش‥ لما انفتح الباب‥ ثمة ريح خفيفة هبت فـأيقظت حواس الشيخ‥ فرك عينيه بظاهر كفه‥ تنحنـــح قليـــلاً‥ سرت شبه قشعريرة في جسده‥ هو الآن وحيـــداً يقظـــاً بيـــن عشش يغط أصحابها في نوم عميق‥ حتـــى ليســـمع صـــوت غطيطهم‥

ملأ عينيه ببحر هادئ‥ وسماء كحلية‥ عرف أن القمر لـــم يزل في غيابه‥ ولم يصل إلى سمعه بعد صوت الشـــيخ رزق مؤذناً للفجر في جامع صالح سليم‥

تجذب الخطوات قدمي الشيخ حميد فيمضي ناحية البحر‥ تلفت حوله‥ لم يجد سوى " عطوة " عسكري السواحل متدثراً فـــي معطفه الصوفي الخشـــن‥ قابضـــاً بذراعيـــه علـــى بندقيتـــه العتيقة‥

تبادلا التحية كالعادة‥ عرف عطوة الذي ليست معه ساعة يـــد أن نوبته قد شارفت على الانتهاء‥ فز عطوة من جلسته بجوار مركب قديم‥ تقدم جهة الشيخ عدة خطوات‥ ثـــم توقـــف‥ ليقفل عائداً من حيث جاء‥

بعض من نسمات الصبح الندية تنسمها الشيخ‥ لمس ماء البحر برجليه الثقيلتين من آلام العمر ‥ كان الماء بارداً‥ لكنه جـذب الشيخ فمضي يخوض فيه‥

لم يكن ليغتسل ولكنه لم يجد مفراً إلا الاستسلام لحنينه•• نقـــل قدميه على مهل كانتا تثقلان خطوه•• حتى وصل المـــاء إلـــى خاصرته فانتفض جسده •• تمنى لو يلهو كطفل فيمـــلأ كفيـــه ويرشف منه•• لكنه عاد•• توضأ الشيخ حميد•• تذكر أيـــوب عليه السلام إذ هو مغتسل في مـــاء بـــارد•• ودعـــا ربـــه•• انحدرت من عيني الشيخ دمعة سحقها بظـــاهر كفـــه•• ولملـــم بقاياها بطرف عمامته البيضاء•• ترامت إلى مسامعه أصـــوات نوارس تتأهب لبداية يوم••

سرح خياله•• جعل يرقب السماء•• والعشش تبدو أمامه كومـــاً متلاصقاً•• ومن خلفها مئذنة جامع صالح سليم••

بدل جلبابه•• وضم ساقيه النحيلتين داخل سرواله " الرشـــيدى" •• تذكر وحدته•• غنى••

أقوم من النوم ، وأقول يا رب عدلهـــــــا
بلدي قصاد عيني ، مش قادر أعدي لهـــــا
وريس البحر محتار ما هو عارف يعدي لها
سألت شيخ عالم بيقرأ في معادلهـــــــــا
سند الكتاب من يمينه ، والتفت قاللـــــــى
بين المسا والصباح ربك يعدلهـــــــــــا

••••••

يعيش الشيخ حميد الآن في عشته وحيداً بعد أن رحلـــت رفيقـــة دربه•• كانت الرحلة قد دامت قرابة نصف قرن•• أنجبت لـــه البنين والبنات••

" الطاهرة " تأتيه بين حين وحين•• تظهر له عند الكوة المعلقـــة بها "لمبة الجاز " كأنما لتطمئن عليه•• يمضي طيفها ســـريعاً•• فإذا انتظرها غابت••

بعد الهيل والهيلمان•• والهيبة والصولجان•• كان الشيخ حميد

صاحب الرأي والمشورة.. يحيا وحيداً.. قـــرر الأبنـــاء أن يزوجوه بإمرأة تقوم على خدمته.. رفض بإصرار..
-يا سبحان الله..
قالها الشيخ وهو يحرك مؤشر الراديو الصغير ليأتيـــه بصـــوت الشيخ سيد النقشبندي.. أو نصر الدين طوبار.. ينصت إلـــى التواشيح.. يرددها.. كأنما يعيش ساعتها في حضرة.. عـــلا صوت الشيخ رزق من جامع صالح سليم بصوت الحق " الصلاة خير من النوم ".. هب من جلسته منتفضاً فزعاً.. خشـــى أن يسلبه دفء الفراش يقظته فتروح عليـــه الصـــلاة الحـــاضرة. .يجرجر ساقيه في وهن.. يتمنى لو يمنحه الله همة الشباب..
ما بين حوقلة وتسبيح دلف الشيخ حميد مـــن بـــاب الجـــامع.. يسمعه الشيخ رزق فيتبادلان التحية.. حتى إذا فرغت الصـــلاة جعلا يتذكران رحلة العمر الجميل..

- بقيا من زمن تهاوى.. وحلم رحل..

قالها الشيخ رزق بلغته الفصيحة دوماً وهو يربت علـــى كتـــف حميد مودعاً..

- ناوي على الحج السنة دي يا سيدي رزق.. قالـــها الشـــيخ حميد..

- تقبل الله منا ومنك يا أبا الحسيني..

وتبادلا الضحك كعادتهما حين يفترقان..
ملأ الشيخ حميد صدره بماء البحر الممتد أمامه.. لا شئ أمامـــه إلا قشلاق السواحل عيناه مفتوحتان باتساع المـــدى.. ترقبـــان البحر.. كأنما تطمئنان عليه..
منذ أتى الشيخ حميد إلى الدنيا لم يغب عنه.. ولم يطق بعـــاده أيام التهجير القاسية كان يأتي ليحوم حوله وحول عشـــته التـــي تحولت إلى ثكنة جنود..

مع كل طلعة نهار تراه منتظرا رجاله في ميناء الصيد٠٠ معـــهم الزاد والزواد٠٠ يودعهم عند " السعدية " ثم يقفل عــــائدا إلـــى عشته٠٠ حتى يعـــود " ســاعة العصـــاري " ينتظرهـــم عنـــد " الموردة "٠٠

٠٠٠٠٠٠

يأتي هواء البحر ناعما نقيا٠٠ وتلقى الشمس بأشعة دافئة عــــن يمينه٠٠ إذ هو جالس يمدد ساقين يلتمس لهما دفئـــا فيمددهمـــا ملقيا عليهما أطراف شباك الصيد٠٠ وينشغل في عمله اليومـــي دون كلل أو ملل٠٠ يرتق ما أتلفته الأسماك ويعيده إلى ســـيرته الأولى يسحب من كومة الشباك طرفا٠٠ يمد يده إلى ما تحـــت عمامته يأتي " بالمنقاد " ذو الخيوط الحريرية يتفحصه مليا يدكـــه بين العيون الممزقة٠٠ يصلحها من جديد٠٠
يأتيه من الراديو الصغير صوت محمد قنديل يغني٠٠ " يا حلـــو صبح٠٠ يا حلو طل٠٠ يا حلو صبح نهارنا فل "٠٠ يعود مـــن غنائه إلى ذكريات جميلة يهتز لهاطربا٠٠ تذكر محمـــد قنديـــل وهو يغنيها وقد تعلق بسلم سارية المركب فـــي فيلـــم " شـــاطئ الأسرار "

- ياه٠٠ زمن٠٠

قالها آهــــه مثـــل تنـــهيدة دهـــر٠٠ أيـــام الزمـــن الجميـــل٠٠ الأقارب٠٠الخلان٠٠ الصحبة

- إحنا فين وسي ممدوح فين دلوقت٠٠

تذكر كيف انعقدت صداقة بينه وبين عمـــر الشـــريف٠٠ حتـــى رزقه الله بمولود أطلق عليه أسم ممدوح٠٠

٠٠٠٠٠٠

لم تدهشه أخيرا إلا تلك الخطوات الغريبة لوجوه غير مألوفـــة٠٠ أناس لم يرهم من قبل٠٠ يأتون بين وقت وآخـــر٠٠ يشـــيرون بأيديهم٠٠ ينحنون على الرمال٠٠ يجسون الأرض٠٠

- يا ترى مين دول يا حميد•• و عايزين إيه؟ !!
خاطب نفسه وهو يتأهب للقيام من جلسته خارج العشة••
وامتدت خطاه إليهم•• حتى إذا ما اقترب منهم بخطى مهلي••
ملأت عطورهم أنفه•• تراقصت صورته في زجاج
نظاراتهم•• تحيطه سياراتهمالفارهة•• رسموا على الأرض
خطوطا قاسية فكأنما شقوا بطنه•• لم يعره أحدهم انتباها••
دار حولهم وعاد كأنما هو يترنح•• وكاد يسقط•• سمع منذ
لحظات كلاما لم يفهمه•• يحدث ذلك للمرة الأولى••

- حميد اللي كان يرطن بلغة الإنجليز والفرنساويين ولغة الإجريج والطليان•• مش فاهم ••

قالها في حسرة•• ولكنه عاد كأنما يؤنب نفسه ••

- راحت عليك يا حميد •• ولا صابك خبل ••

جاءت ريح خفيف تناوش وجهه •• بدا أقل إقبالا على
الحياة •• هو الشيخ الطاعن فى السن •• شعر أن اقامته في
هذا المكان لن تطول •• لكنه لم يبح لأحد بما في سريرته ••
وطرد الفكرة من رأسه ••

توسد ذراعه قليلا •• سرعان ما أخذته وسنة من النوم ••
رأى ذراعا طويله كأنما هى لطائر عميق •• رفرف على
المكان بقسوة •• حجب الشمس والسماء •• كأنما الشمس
غابت وإرتدت السماء قماشة سوداء •• تمنى أن يأتى النهار
فيزيحها ••

امتدت يد سكينة زوجة محروس ابن أخته لتوقظه •• حين رأته
نائما هزت كتفه •• لم يرد •• كادت تضرب صدرها خوفا
عليه •• طمأنها بصوته •• وعاد إلى جلسته ••قدمت له
رغيف خبز بالجبن الأبيض وكوب الشاى •• تناوله وهو
منشغل بعمله يرتق الشباك •• ونظر بعيدا كأنما يستطلع ما

وراء البحر ‎٠٠‏ وتذكر إبنه زكريا الذى يعمل فى بلاد اليونان ‎٠٠‏
قال لسكينة التى جلست إلى جواره وتقلب له كوب الشاى بالملعقه :
- عارفة يا سكينة ‎٠٠‏ زمان " الإجريج " كانوا بيشتغلوا فى بلدنا ‎٠٠‏ دلوقتى بقينا نروح نشتغل فى بلادهم ‎٠٠‏ دنيا ‎٠٠‏

‎٠٠٠٠٠٠‏

اثبت حميد قدرته على الصمود فى وجه الحكومة ‎٠٠‏ إلا أن الموظف جاء منذرا :
- قدامكم أسبوع واحد وتخلو المكان خالص ‎٠٠‏ وإلا ‎٠٠‏
نظر الجميع إلى الشيخ حميد ‎٠٠‏ حميد الذى دوخ الإنجليز في الجميل لما هبطوا بالمظلات ‎٠٠‏ يستسلم ‎٠٠‏
- الأرض اتباعت ‎٠٠‏ المحافظة قررت تبنى فيها قرية سياحية ‎٠٠‏
قالها الموظف وهو يخط بقلمه فوق الأوراق ‎٠٠‏ وأشار إليه :
- أنت يا اللى اسمك حميد ‎٠٠‏ هات ختمك وابصم كمان هنا ‎٠٠‏ لازم تنفذ واللا تروح فى حديد ‎٠٠‏ البلدوزر ها يجى ‎٠٠‏ مفيش يا أمه ارحمينى ‎٠٠‏ سامع ‎٠٠‏
تذكر حميد تلك الآلة التى ليس لها قلب ولا تعرف عاطفة ‎٠٠‏ وقال الموظف كلمته الأخيرة : ممكن تنقلوا عششكم وتروحوا ورا الجبانات ‎٠٠‏ مؤقت ‎٠٠‏
هز حميد رأسه وهو يدعك إبهامه من أثر البصمة ‎٠٠‏ استسلم تماما بعد أن فقد الأمل فى المراوغة أو التحدى ‎٠٠‏ لاحظ اختفاء اللون الأزرق من السماء وتبدله بلون السواد ‎٠٠‏ بينما تكاثفت السحب وجعل ينقل عينيه بين الجميع من حوله ‎٠٠‏ ظل يزحف ‎٠٠‏ ويزحف ‎٠٠‏ ويزحف ‎٠‏

يحمل بقايا شباكه ·· وآلـــه ·· وأخشـــابه ·· وقواربـــه ·· ومرساته ·· من مكان إلى مكان ·· هنا قرية سياحية ·· هنـــا شاطئ خاص ·· هنا منفذ الجميل الجمركـــى ·· هنـــا قريـــة الجميل ·· هنا قرية سياحية جديدة ·
ممنوع ·· ممنوع ·· ممنوع ··
شعر أن المدينة تلفظه ·· طفرت مـــن عينـــه دمعـــة ·· لـــم يمسحها ·· جعلها تســـيل ·· فكـــادت أن تحـــرق خـــده مـــن سخونتها ·· كان يتمنى أن يســـتريح اســـتراحة المحـــارب ·· لكنهم ما زالوا يطاردونه ·· ألقى أشياءه فوق بعضها كومـــاً ·· جعل يفكر فيما يفعل ·· انطلق صوته يغنى ·· بينمـــا انحـــدر دمعه :

يا عين ما تبكى على اللى كان فنجرى ، وهنـــــــــاه
وغلبوا زمانه ما بين الجبال الداوية وهنــــــــــــــاه
صبح حاله شين ، يبكى بدمع العين ويقـــــــــــــول
يا رب أروح فين ·· أهى ضاقت بى هناك ، وهنـــــاه

······

لم يشك أبداً لمخلوق ·· حتى مكانه الأخير بدا يحوم من حولـه ·· مد بصره ·· كأنما يطوف ·· وكأنما هو يودع البحر ·· عيناه مفتوحتان باتساع المدى ··
خطا نحو ماء البحر ·· كان الماء حاراً كأنما هـــو علـــى رأس تنور ··توضأ ··
تهيأ للصلاة ·· وسجد ·· كانت سجدته الأخيرة ··
لم يكن يعرف أن الأفيال تموت بعيداً ·········

الإفلات من الحصار

لم يكن ليقدر على الإفلات من جندي الدرك الرابض في موقعه عند الطريق المؤدي إلى حجر سعيد•• إلا بمعجـــزة•• وقد حدثت•• إذ غافله وهو ينشغل بفحص تصاريح الصيد لـدى الآخرين•• حينئذ مضى يغذ الخطى حاملا سنارة الصيد علـــى كتفه في بوصتها الطويلة الممتدة نحو السماء•• واضعـا علـى رأسه قبعة من الورق المقـــوى•• يعلـق فـي ذراعـه سـلة صغيرة•• تصنّع الصمم واهتم بمراقبة طيور النـــورس تـأتي نحوه•• وتابع رقصات الدلافين•• وحركـــة السـفن العـابرة للقناة••

قطع شوطاً دون أن يلقى بالا للجندي•• بدا الطريق إلى مكـــان الصيد ناعماً كالحرير رغم تلك النتوءات البارزة أحيانـــا لكـن الحذاء الرياضي الذي بقدميه يجعله رشيقا مثل غزال•• تـهادى في خطوه•• لاشئ يداعب أذنيه سوى موج خفيف يأتي منحـدراً على وجه القناة•• يداعب بالتالي الأحجار فكأنـه يـهدهدها•• اقترب من موضعه•• جلس على شفا الماء•• قنع بأن يصبـــح لبعض الوقت تمثالا•••

لم يستخرج هذه المرة تصريح الصيد كعادته•• شـق عليـه أن يدور بين المكاتب كي يتسول التوقيعات ويترجى الأختـام•• أو يزيد نفاقه فيداهن هذا بضحكة أو بكلمة•• لذا قرر المغـامرة•• ونجح••

سطوع الشمس ينبئ عن صباح جميل•• إذ السماء لا يكدرهـــا سحاب•• والرياح خفيفة تمر مثل نسيم عابر•• هـــذا صبــاح شتائي•• لكنه دافئ••

الحركة في الميناء بدت عادية•• انطلقت اللنشـــات والقـوارب تحوم حول السفن كأنما هي-طيور انطلقت من أعشاشها تســـعى

نحو الرزق•• والسفن قد أسلمت قيادها للشـــمندورات تربطـــها وللأمواج الخفيفة كي تلاطفها••
لاشئ••• حتى انقطعت الهداة وتســـرب إلـــى الأذن صـــوت " زمجرة " لنش " الكرانتينا "•• و صلصلة جنـــازير مراســـي سفن أخرى هوت وهي تصم الآذان إلى بطـــن المـــاء•• يشـــد عمال الرباط الوثاق إلى شمندروات مختلفة تهبط وتعلـــو وجـــه الماء مثل كرة من الفلين•
كأن اليوم عيد•• قالها لنفسه ثم عاد ليلومها••
ويسأل : ليتني كنت عاملاً في الميناء ؟!
حرية•• انطلاق بدلاً من تلك المكـــاتب المغلقـــة•• والأوامـــر واللوائح والقوانين•• موظف " هز رأسه " ما معنـــى الدرجـــة الأولى ؟!
أكثر من مائة موظف يعملون تحت أمرتك•• تبدو في خيـــلاء الطاووس وهم يحيونك•• يتوددون إليك•• وفي نهايةالشـــهر•• راتب هزيل يبعث في النفس السأم والحسرة والندامة على عمـــر ضاع سدى•• إنه يذوب في لحظات تتلقفـــه أيـــدي أصحـــاب الدروس الخصوصية•• وتكاليف الحياة القاسية•••
استسلم ليأسه•• لكن ضحكة غافلته وارتسمت على شـــفتيه•• كاد يمحوها•• قال :
- النهاردة أجازة عارضة•• استريح شويه من العمل•• ومـــن تكـــرار الوجـــوه•• ومـــن القيـــل والقـــال•• وتصـــاريح الخروج•• ومكالمات التليفون••

تحسس موضع جلسته•• نتوءات الأحجار تبرز من حوله••
قال : كفى•• ثم ألقم سنارته الطعم واختار موضعاً لـــها فـــي الماء•• أطمأن•• خيط السنارة لايهتز•• مر بعض الوقـــت•• هل ثمة بادرة أمل•• تذكر الدعاء الـــذي يلـــهج بـــه صـــدره ولسانه•• تمنى صيداً وفيراً•• زوجته تعشق أسماك البحـــر••

تكره أسماك البحيرة التي أصبحت مصبا لمخلفات المحافظات المطلة عليها.
منذ زمان بعيد وهو يهوى الصيد بالسنارة.. أسرته التي يعمل أكثرها في حرفة الصيد ينتظرون أشارة منه.. أخوته.. أبناء عمومته.. أقاربه.. يصفون أنفته أحيانا بالتكبر والغرور .. هو يكره مسألة أنصاف الحلول.. " ياأبيض.. ياأسود "
جاء صوت المطربة لطيفة تغني من ترانزستور صديقه " الصقر الرهيب" كما يحلو له أن يسمى نفسه.. فهو لا ينقطع يوما واحدا عن الصيد منذ وصل إلى المعاش.. شرع ينظر إليه.. حياه الصقر وهو يرفع قبعته لأعلى ويمتلئ صوته فخراً بقدرته على الصيد حتى فى أسوأ الظروف.. رد التحية بصوت عذب.. اقتعد الصقركرسيه.. ملابسه البيضاء.. شعره الأشيب يطل من تحت قبعة رمادية.. نظارة مذهبة.. سجائر مستوردة وغليون حميم.. شطائر محشوة بالبسطرمة والجبن الرومي.. ترموس الشاي.. أكواب من البلاستيك..

- هيه.. كيف حال الصيد اليوم يا شاعري الجميل ؟ !!
- الحمد لله.. يبدو أن السمك لديه بعض الأعمال يقضيها بعيداً..

ضحك مقهقها وقد ملأ صوته أرجاء الفراغ : بعض الأعمال.. هيه.. أتظنه موظفاً مثلك ينصرف في الثانية بعد الظهر.. حتماً سيأتي.. سوف أقتنصه بسنارتي هذه...

- أعانك الله..

ألقى له بعلبة السجائر المستوردة : لك هذه السجائر أيها الشاعر علها تفتق ذهنك عن طريقة مثلى للصيد...
تلقفها في مهارة : شكراً لك أيها القبطان..

- تعال يا شاعري الجميل لتتناول شطيرة من صنع يدي زوجتي الجميلة.. إنها تعدها بإتقان.. ليس ورائها أطفالا

يذهبون على عجل لمدارسهم•• ثم تتلـــهف هـــي للحـــاق بوظيفتها•••

- أشكرك سيدي القبطان••• لاعليك•••
- هأ•• هأ•• تصر على تسميتي بالقبطان مع أنني لم أســافر يوما بسفية••• لكنني أفكر باصطحاب زوجتي الجميلة فـــي رحلة عـــبر موانـــئ المتوســط•• انـــها فـــي الخامســـة والعشرين•• في عمر إبنتي الصغيرى•• أجمل من نجمات السينما•• هل زوجتك جميلة••

غمغم•• سكت انشغل بمتابعة الصيد•• عاد الصقر لمداعبته :

- هل لك أن تتزوج•• إن لها أختا لا تقل عنها جمالا•• إنـــها تهوى الشعر مثلك تماما•••

قطب جبينه•• تذكر زوجته التي لا تفتر شفتيها إلا عن ضحكـــة عابرة وفي أضيق الحدود•• مد " بوزه " ممتعضا••

علت ضحكة الصقر الرهيب وهو يقتنص سمكة كبيرة•• ضمـــها إلى صدرها•• وجاء صوت فيروز ••

حبني يوم•• وإنساني بكـــــــره••
بأحفظ لك ع الدوم•• بقلبي ذكرى••
شو نافع اللوم•• شو نافع الحســـرة••

جاء صوت الصقر ثانية : ماذا بك أيها الشاعر•• هلا تســـمعني إحدى قصائدك مادام الصيد في عالم الغيب بالنسبة لك••

- لاشئ•• سأنشدك قصيدة لأمل دنقل••
- أريد قصيدة لك••
- عفوا•• أنا لا أحفظ شعري••
- أذن•• هيا إلى العمل أيها الشاعر الجميل••

أخرج غليونه•• أشعله سريعا•• مد سنارته من جديد•• أحكـــم قبضته عليها•• جعل ينفث الدخان في تلذذ•• عاد لمغازلتـــه•• كيف حال الصيد الآن ؟!!

قالها الصقر الرهيب وهو يضم سنارته إلى صدره ليخصل علـى سمكة أخرى وقعت في حبائل صيـــده•• دســـها ســـريعا فـــي السلة••

كان يضحك وهو ينعى حظا عاثرا أضاع منه سمكة •• أيقظتـــه مداعبة أخرى لسنارته •• أشعل سيجارة •• حملق جيـــدا فـــي صفحة الماء •• انعكست عليها أشعة الشـــمس بـــدت كـــالمرآة المصقولة •• سحب السنارة فإذا بها خالية من الطعم •• عـــاد يلقمها •• ألقاها فى الماء •• جاء صوت الصقر :

- هل هنالك أغلى من الحرية •• منذ أحلت للمعاش وأنا هانئ البال •• العمل فى البحث عن البترول مهمة شاقة •• لكنها جميلة •• الدسائس والوشايات تقصف العمر •• وتـــؤرق الأحلام وتخنق الطمـــوح •• إنـــها حقـــل خصـــب لنمـــو الفساد •• قل لى أيها الشاعر ما هو عملك الحقيقى ؟!!

لم يمهله لينطق •• بادره : آه •• تذكرت أنـــك تعمـــل رئيســـا للقسم •• وظيفة قاسية حقا ••

تنهد فى فتور : امتى بقـــى ربنـــا يتـــوب علينـــا •• ونخـــرج معاش ••

سمعه الصقر : إنك لم تزل صغيرا أيها الشاعر •• الشيب الـذى بمفرقك لايصل بك الى الخمسين •• سأظل أنـــاديك شـــاعرى الصغير •• أتظننى أجهل مسألة الأعمار •• أعرفها جيـــدا •• هيا إلى العمل ••

انقطع الكلام •• تابع كلاهما صيده •• سرعان ما جاء صـــوت الصقر : ماذا حدث أيها الشاعر ؟!!

- لقد هربت السمكة ••

- آه •• حتما ستأتى إلى •• إنها هى •• ها هـــى •• إننـــى أطعم السمك عسلا ••

رفع سنارته ليجد بها سمكة جميلة ترقص فى الهواء ويلمع لونها الفضى فى ضوء الشمس ·· أحكم قبضته عليها ·· قبل أن يلقيها فى السلة أشار له ·· خذها ·· لقد امتلأت سلتى ··

- مستحيل ··

تذكر سخرية زوجته ·· ستميل بفمها يمينا وشمالا ·· ستقارن بينه وبين زوج صديقتها الذى اشترى شقة رائعة تطل على القناة ·· وسيارة أحدث موديل ·· وفتح حسابا فى البنك ·· وأطلت صورة جارته الحسناء التى عادت برصيد من الأوراق الخضراء مصحوبة بزواج فاشل ·· سألت الزوجة :

- الأستاذ بيشتغل إيه ؟!!

تود الزوجة شبه مخنوقة : يعمل ·· يعمل فى وظيفة مرموقة !!!

- إنه يعود محملا بالصحف والكتب كل يوم ·· كنت أظنه صحفيا ·· هل لديه عمل آخر ··

- لا ·· ليس لديه سوى أن يغلق مكتبه بالساعات كى يستلهم قصيدة بعد الهيام فى وادى عبقر !!!

- إذن هو شاعر ·· لقد صدق حدسى ·· ما أجمل الشعراء فى هذا الزمن الصعب ·· أود لقاءه ··

كادت تصرخ فى وجهها : ماذا تقول تلك البلهاء ·· آه ·· إنها تسعى إليه ·· سأحيل حياته جحيما ··

سألتها : ماذا بك سيدتى ·· هل تحدثين نفسك ؟!!

- لا ·· لا ·· لقد نسيت إناء الطبخ على الموقد ·· عفوا ·· سأذهب الآن ··

انتفضت يده ·· سرت فيها شبه قشعريرة ·· لا بد أن سمكة تناوشه ·· سحب السنارة ·· كانت سمكة جميلة ·· ضمها إلى صدره ·· قبلها ·· تمثلت له الجارة الحسناء ·· كادت تصرخ ·· داعبها أكثر ·· هم يراقصها ··

- ماذا بك أيها الشاعر ؟!
إننى أناديك منذ فترة وأنت فى عالم آخر .. هل زارك وحـــى الشعراء .. أم أنك فى حالة هيام ..
- لا يا سيدى القبطان .. لقد أرسل الله لى رزقا وفـــيرا .. الحمد لله
تدخل صوت الزوجة : البلــهاء تطلــب مــن الله زوجــا مثــل زوجى .. ما أخذته الصلعاء فتلحق به أم الجدائل !!!
قال الصقر الرهيب : اليوم أنت على غير حــالك !! الآن حــان وقت المغادرة .. سيارتى بالخارج .. وزوجتى على أحر مــن الجمر فى أنتظارى .. هل تأتى معى لتوصيلك ؟!!
قال سعيدا : هيا ..
مضيا سويا .. ألقيا بالتحية على الجندى الــذى اســتلم نوبتــه توا .. احتلت السماء شمس النهار .. رائحة البحر تملأ النفس فيضا من هناء .. النوارس كأنها تودع الأصدقاء ..
قال مخاطبا الصقر : ماذا لو تحولت النوارس إلى طيور ســـود تكالبت فوق رؤوسنا .. هل ندع ما في أيدينا ونهرب ..
جمد وجه الصقر وقال ساخرا : الصقر لا يهاب ولا يــهرب .. الكل يخافه .. الصقر مقاتل عنيد .. احتلت صورة الحســناء مكان فتاة الإعلانــات علــى اللوحــة المنصوبــة فــى دوران الميدان .. غمزت له بعين وأفردت ابتسامة وهى ترســل مــن عينيها شعاعا يلهب القلب ويؤجج المشاعر ..
- آه لو يعود زمان الصبا..
قالها الصقر وهو يبتسم وينفث من غليونه دخانا كثيفا..
- إلى اليمين سيدي القبطان.. نلتقي في يوم آخر..
- لا عليك.. هذه بطاقة بها رقم هاتفي المحمول.. ســأكون بأنتظارك..
- أشكرك...

- لا تنس شاعري الجميل أن تحفظ قصائدك بدلا من قصائد الآخرين ! !
- سأحاول ..

دار على عقبيه وهو يحييه.. دلف إلى باب العمارة التي يقطن فيها ..استقبلته الجارة الحسناء عند المصعد.. أشارت له بالتحية من وراء فرجة الباب ..

دس المفتاح في الباب.. كانت زوجته تجلس دون اهتمام أمام التلفاز تتابع برامجه.. ألقى التحية.. لم ترد..

رن جرس الهاتف.. رفع السماعة.. جاء صوت الجارة هامسا.. حار كيف يرد.. أغلق السماعة.. تفصد جبينه عرقا.. احتشدت الكلمات مرة واحدة في حلقه.. استدار ناحية الحمام ليغتسل لم تعبا امرأته بشئ...

أغلق باب الحمام.. نظر في المرآة.. رأى شروخا اعترت ملامحه.. الماء الساخن نفض عن كاهله التعب.. ضبب البخار الزجاج المصقول.. ارتدى ملابسه.. توجه إلى غرفة نومه.. راح في نوم عميق.. وصورة الجارة الحسناء تداعب مخيلته..

الأهرام المسائى

٢٠٠٠/١٢/١٩

موت نورس عجوز

هل كان عليه الإذعان لصوت العمر ٠٠ أم يعطي الأيـام ظهره ؟ ألف المغازي البحر واعتاده٠٠ ثمة علاقة بينهما٠٠ منذ كان صبيا٠٠ شابا٠٠ كهلا٠٠ والبحر على حاله لا يشيخ ولا يهرم٠٠

تبادلا التحية٠٠ كل بطريقته٠٠ المغازي بحمد الله وتسبيحه والاستسلام لأمره٠٠ والبحر بأمواجه المصطخبة ومياهه الصافية في بعض الأحيان٠٠ صارا صديقين٠٠ هفهف بعض ريح خفيف عبث بطرف عمامته٠٠ ولم يكن بوسعه إلا أن يضحك٠٠

مد خطوه جهة المخزن العتيق عند نهاية حجرات البيت ليغيب فيه٠٠ كأنما يتشمم ريح أيام زمان شمر عن ساعدين خذلهما بعض وهن٠٠ انحنى قليلا للأمام حتى كاد أن ينكفئ لولا بقية من عافية٠٠ جذب طرفا من الشباك المتراكمة وألقى نظرة واسعة نحو بقايا لأدوات الصيد التي شاركته رحلة العمر٠٠ نادى٠٠

- ياعثمان٠٠ يأبو كريمة٠٠ تعالى٠٠ عاوزك دلوقت حالا٠٠

جاءه الرد سريعا : أيوه يا أبه٠٠ بتعمل إيه٠٠ ارتاح شويه زي ما الدكتور قال٠٠

- ارتاح ٠٠ مفيش راحة في الدنيا٠٠ طلع معايا شوية الغزول دول عشان نبيعهم للناضورى٠٠
- الناضورى ها يشتريهم بتراب الفلوس ٠٠ أنا عارفه ٠٠
- لأ وحياتك ٠٠ لازم يدفع فيهم الحق ٠٠ وبعدين المركب اتباعت وخلاص ٠٠ إيه لزمتهم ٠٠

لم يمتلك عثمان ناصية الحديث إلا واستسلم بجر " الغزول " بسواعد قوية ويعدها على شكل نصف دائرة بعد أن يقيسها " بالقامة " ويحملق فيها بعينين ثاقبتين ٠٠

- خسارة يا ابه المغازي ٠٠

- يا اللا بقى يا عثمان ٠٠ حسن الختام ٠٠

٠٠٠٠٠٠

قضى المغازي ردحا من الزمن يصارع البحر ويصارعـــه ٠٠ أمضى عمرا بأكمله في رحلة السعي بين أمواجه العاتية ورياحه القوية ليحصل على الرزق ٠٠

استقر رأيه أخيرا على بيع بـــاقي مـــا يملكـــه مـــن مجـاديف وشباك ٠٠ صناديق وأحبال ٠٠ مراسي وخيـــوط ٠٠ دوبـــار وفلين ٠٠ رصاص ومناقيد ٠٠ كأنمـــا يبغـــي الوصـــول إلـــى استراحة الفارس بعد طول عناء ٠٠

- بس دول عمرك يا أبو عثمان ٠٠ قالتها صفية زوجته ٠٠
- خلاص يا صفية المراكب اتباعت والولاد رافضين " كـــار " الصيادة ٠٠

رفعت يديها للسماء : أحمدك وأشـــكرك يـــا رب علـــى حســـن عطيتك ٠٠ كلهم اتعلموا واتوظفوا ٠٠

- بأحس يا صفية إنهم رافضين " كار " أبوهم وجدودهم ٠٠
- يا سيدي ٠٠ مفيش حد بياخد أكثر من نصيبـــه ٠٠ ربنـــا يعين كل حي على حاله ٠٠
- اشمعنى عثمان واقف معايا لوحده ٠٠
- ربنا كبير ٠٠ عثمان ابن عمـــرك ٠٠ البكـــري ٠٠ ربنـــا يعمر بيته ٠٠
- والتانيين ٠٠
- ربنا يطرح فيهم البركة ٠٠ يحنن عليهم كل مـــن يتولـــوا عليه ٠٠
- كان نفسي حـــد يكـــون مـــع عثمـــان ٠٠ وبـــلاش أبيـــع المركب ٠٠ دا كان رأس مالي ٠٠
- ولادك هما رأس مالك يا حاج ٠٠

صاح المغازي صيحة كادت تصم بسمع الناضوري الذي أصيب تواً بالبكم وانسحب إثر عرضه سعراً بخساً ..

- يفتح الله يا ناضوري .. لاتبخسوا الناس أشياءهم ..

قال مغادراً : بين البائع والشاري يفتح الله ..

أشار بقوة : بالك دول لو قعدوا ميـــت سـنة لاممكـن أفـرط فيهم ..

انسل الناضوري وهو يقلب كفين في عجـــب .. بينمـا أخـذ المغازي ينقب بين " الغزول " ويكتشف ثقوباً بها كي يرتقـها .. ونظر من نافذة صغيرة إلى وجه البحر الممتـد وكـان هادئـاً وديعاً .. وحمل بعضاً من الشباك عند ناصية البيـت البحريـة وجاءت صفية ومعها صينية الشاي بالقرفة ناولته كوبـاً وهـو يراقب اندفاعات النوارس قادمـة كعادتـها ثـم تميـل يمينـاً أو يساراً ..

- سامعاك مع الناضوري .. خير انشاء الله ..
- دا راجل لص .. عايز يشتريهم ببلاش ..
- مش قلت لك يا أبو عثمان .. البائع خسران ..
- أمال فين أبو كريمة راح ..
- عثمان .. خرج .. راح المينا وجاي ..
- ربنا معاه ..
- مالك اليومين دول الفكر جايبك وموديك ..
- بأفكر في اللي لا بيغفل ولا بينام ..
- ونعم بالله ..
- نويت أمد المركب من جديد .. مركب حديد ..
- حديد .. بس دي عايزة شيء وشويات .. وعايزة مجـهود وتعب ..

- يا صفية ·· ما يقويش زند الصيـــاد إلا البحـــر ·· والا إنتي نسيتي ··

استراح المغازي إلى حلو حديث صفيـــة ·· إذ ظلـــت تذكـــره بالأيام الخوالي ·· ويوم الزواج والزفة والفرح الـــذي اســـتمر أسبوعا كاملا دوى صيته في أنحاء المدينة ··

قالت تضحك وهي تداري فما سقطت بعض أسنانه : يعني بقـــى لنا كام سنة ··

- يوه يا غالية ·· قولي خمسين سنة ·· لأ ·· أكتر ··
- خمسين ايه يا حاج ·· دا احنا يا دوب ··
- يا أم عثمان ·· دا كان أيام النحاس باشا ··
- لسه فاكر ··
- وفاكر لما عبد الناصر أمم القنال ·· عثمان كان عنده ســـت سنين وراح مدرسة العصفوري ··
- بس يا خسارة ساب العلام ··
- البركة في الولاد ·· عارفة يا صفية أنا شايل في المخـــزن ده صندوق فيه تحويشة العمر ··
- من ورايا ··
- من يوم ما اتجوزت ·· وأنا باشيل اللي فيه النصيـــب دون عدد ··
- ولا تقولش ·· آه منك آه ··
- أديني قلت ·· يا اللا بقى قبل ما أموت ··
- يا راجل ·· ربنا يجعل يومي قبل يومك ··

غابت صفية لفترة ··أعدت فيها بعض طعام شاركه فيه عثمـــان بعد قدومه ، أديا بعده صلاة العصر وصعد عثمان إلى زوجتـــه وأولاده في الطابق العلوي من البيت ·· أوقفه صوت أمه التـــي كادت توشوش له ·· قال صاعدا درجات السلم :

- المغرب نقعد شويه ·· أوعي تنسي كوم السمك اللي عندك ده ·· خالي الأباصيري بعته ··
- ها أبعت لأخواتك منه ··

······

لم يكف المغازي عن التفكير في قراره ·· ظل يفكر ويفكر ·· أزف المغرب ·· أدى صلاته مع ولده ·· مرقا ناحية المقهى ·· ما بين النرجيلة والشاي تبادلا الحديث لم يشاركهما أحد بغير التحية والسلام ·· حتى جاء صبي انحنى يمد يده ليمسح حذاءه ·· رفض ليس من باب البخل ·· لكن درءا للذنوب ·· هكذا يرى – أقبل بعده طفل أشعث أغبر ·· غب من كيس حفنة فول سوداني أودعها على الطاولة ·· أمره برفعها وناوله بعض النقود ·· وضاحكه :

-يا واد يا لئيم ·· إنت عارف إن أسناني خلاص وجايب لي فول ··

قال عثمان : بس أسنانك ما شاء الله سليمة يا أبه ··

- حفظناها في الصغر ·· حفظتنا في الكبر على قول الامام الشافعي رضي الله عنه ··
- طب رجعت الفول للواد ليه ··
- دي حسنة ·· أنا عارف الواد ده ·· ده بيجري على يتامى ·· الله يعين كل حي على حاله ··

لم يمتد الحديث بينهما حتى وانتهما صلاة العشاء فأدياها ليتصل بهما الحديث من جديد ··

- عارف يا عثمان ·· أنا عديت الفلوس طلعت ميت ألف جنيه غير ثمن المركب القديم ··
- وأنا معايا حسبة عشرين ··
- اللهم صلي على النبي ·· خلي فلوسك معاك ··

- فلوسي هي فلوسك ‥ أنت ومالك لأبيك زي الرسول ما قال ‥
- عليه أفضل الصلاة والسلام ‥
- أتاريك كنت نازل تفتيش في المخزن من ساعة ما بعت المركب القديم ‥
- مش هاين عليا البحر ‥ ومش عايزك تشتغل عند حد ‥ طول عمرك ريس ‥ أصل تبقى عيبة ‥ وبعدين رزق البحر متداري في علم الغيب بيني وبينك ربنا كفاية عمرك ماتنضام ‥
- ونعم بالله ‥ توكلنا على الله ‥

تشابكت أيديهما ‥ وأتحد فؤاديهما وهما يؤديان عملاً مرهقاً لا يضيعان وقتاً إلا أمضياه في عمل دؤوب وجهد مخلص ‥

- على بركة الله ‥ أكتب يا خطاط ‥ بسم الله مجريها ومرساها ‥
- توكلنا على الله ‥ ياللا نطب المركب ‥ هيلا ليصا ‥ هيلا ‥

تنزلق المركب من عند " القزق " وسط تهليل وتكبير ودعاء ‥ كان المغازي يرقب الموقف فرحاً بإنطلاق المركب الجديد وثمة جمع من آله وأصهاره توافدوا يشاركونه ‥

صرخ أحدهم : لا حول ولا قوة إلا بالله ‥ مالك يا أبه المغازي ‥

قالها صهره بينما أقبل عثمان يحنو بكفه على خد أبيه : ايه يا أبه سلامتك ‥

- الأمانة معاك ‥ خلي بالك من أخواتك ‥ لا إله إلا الله ‥
- محمد رسول الله ‥

أسلم المغازي الروح لبارئها ‥ أغمـــض عثمـــان جفنيـــه ‥ وصوت النوارس تبكي ‥ وشمس لملمت الضياء مرتحلة نحـــو الغروب ‥

الأهرام المسائى

٢٠٠٠/٧/١٨

قطط.. وأسماك

لم يكد سيد ينتهي من تكسير قالب الثلج بالدقماق الخشبي استعدادا لطرحه فوق الأسماك المعدة للبيع على الطاولة المكسوة بالصاج " المجلفن " ٠٠ حتى انتابته شبه رعـــدة وهـــو يســـمع صوتا قد جاء من صاحبة وجه بدا كالبدر ليلة تمامه يطـــل مـــن وراء ملاءة سوداء تلف قواما ممشوقا ٠٠ وترفع صاحبته إصبع سبابتها تعيد خصلة شعر ذهبية تمردت على مكمنها :

- ما شفتش خالتي يا سيد ؟ !!

انقطع عن عمله وجعل يحملق مدهوشـــا ٠٠ ألجمـــه الصـــوت فاحتبس لسانه داخل فمه وكاد يسد حلقه ٠٠ غمغم قليلا ثم جـــلاه الفرج ٠٠ قال :

- لأ يا محاسن ٠٠ عيني ما شافتها النهاردة٠٠

ضحكت في دلال : ما تشوفش وحش ٠٠ أصلها اتأخرت قلـــت فاتت عليكوا ٠٠ أصلنا عايزين سمك ٠٠

تمهل وهو يتأهب لاستيعاب قدر الدهشة المتزايدة : اتفضلي يـــا محاسن ٠٠ العناب جاهز يا قمر ٠٠

زاد دلالها : إيه ده ٠٠ كل ده يطلع منـــك ٠٠ صحيـــح تحـــت السواهي دواهي ٠٠ خاف على نفسك القطة تأكلك ٠٠

تراجع قليلا ٠٠ ونطق وهي تمضي : قطة ٠٠ آه ٠٠ أموت أنـــا في القطط ٠٠

انصرفت محاسن وهي تنصت إلى كلمات الاعجاب تأتيها مـــن الباعة الذين ينادون بها على أسماكهم ٠٠ لم يملأ ســـمعها قـــدر صوت سيد الذي ما زال يودعها بعينين زادتا ألقا وجحوظا ٠٠

- مالك يا سيد ٠٠ بقالي زمن واقف وإنت تايه فـــي " البـــاي باي " ٠٠

جاء صوت المعلم سناري مباغتا للواعج الحب ٠٠ قاطعا لتـــلال الشوق ٠٠قاصما للحلم الجميل ٠٠ كأنه فلول خيل جامحة تـــدك

بسنابكها مرابعه ·· وعلت وجهه صفرة ·· فــز مــن فــوق كرسي المعلم سناري فزعا :

- لا مؤاخذة يا معلم ·· أصل ··

قاطعه : لا أصل ولا فصل ·· " الغلة " كام في الدرج ··

- لسه على فيض الكريم ·· فرج ربنا قريب ··

اسند سناري يده على طاولة السمك ·· وراح يدق عليها بأناملـه يراقب حركة السوق وأصوات الباعة ··بـدا وكأنــه يســتعجل الزبائن في القدوم لكنهم جاءوا على مهل ومر بعضـــهم عليــه مرور الكرام ·· استأنف الحديث مع نفسه وسرعان ما يعبـــث في ذقن غزاها الشيب وأحالها إبرا مدببة ··

سأل : وزنت سمك حبيبة القلب والست حميدة خالتها ··

رد : حالا يجهز ·· طيارة ··

- فوت على الواد حليم في القهوة يجيب الشاي والشيشة ··

······

حتى إذا انفلت سيد برجليه جهة بيت محاسن إذ أقبلـــت حميـــدة ترفل في ثوب وردي يضم جسدا ممتلئا دون ترهـــل أو بدانـــة ويبرز جمالا أنثويا لم تقهره سنوات العمـــر ·· وهـــي تمشـــي الهوينى مثل بطة ··

- مرحب يا ست حميدة ·· اتفضلي ··

قالها المعلم سناري في حين ردت : شكرا يا سيد المعلميـــن ·· يا ترى الأمانة جاهزة ··

- إلا جاهزة ·· الأمانة طارت على جناح الشوق ·· يا سلام ·· يا ريت جيتي في جمل ··

- وحسابك كام يا معلم ··

- حساب ·· يا ستي ·· مفيش بين الخيرين حساب ··

- ما شفتش سيد يعني ·· راح فين ؟!!

- سيد ٠٠ آه ٠٠ طار ٠٠ قصدي راح ٠٠ آه راح ٠٠ معــاه الأمانة ٠٠
- إيه يا معلم مالك ٠٠ سلامتك مش على بعضك خير ٠٠
- يا سلام يا ناس ٠٠ إمتى الزمان يسمح يا جميل علـــى رأي سي محمد ٠٠
- إيه ده يا معلم ٠٠ إيه اللي صابك ٠٠ عيب يا راجل انـــت متجوز وعندك عيال ٠٠
- عيال ٠٠ آه متجوز ٠٠ آه العيال ٠٠

٠٠٠٠٠٠

مرة واحدة اصطفت كل حروف الكلام في حلق سيد الـــذي لـــم يستطع أن يلضم حتى كلمة واحدة ٠٠ أو يـــداري الدهشـــة ٠٠ بوغت بالبنت محاسن وقد فتحت له الباب مرتدية بعض الملابس التي كشفت عن ذراعين في لون الشمع وصدر نافر نـــاهد ٠٠ وقف كالتمثال جامدا ٠٠ عزمت عليه بالدخول ٠٠ رفـــض ٠٠ ألحت وهي تغمز له بعين واحدة ٠٠ دخل ٠٠ بادرته :

-مكسوف يا سيد ٠٠ وش كسوف قوي يا عرب ٠٠

ذراعها البض بغوايشه الذهبية لم يزل قابضـــا علـــى تلابيـــب ملابسه ٠٠كلمته بنعومة ٠٠ لم يحرك ساكنا٠٠ حاول التملـــص منها ٠٠ أجلسته إلى جوارها ٠٠ الأريكة مكسوة بقطيفـــة ذات لون مخملي ٠٠

- دراعي يا محاسن ٠٠
- خليك قاعد معايا شوية يا سيد ٠٠ نتسامر شوية ٠٠ إيـــه قولك ؟!!
- نتسامر إزاى ٠٠ وخالتك ٠٠ والمعلم ٠٠ والسمك ٠٠
- يا سيدي ٠٠ سيبك ٠٠إديني من وقتك ساعة زي ما الســت شهرزاد بتغني ٠٠

إنسلت محاسن جهة المطبخ تعد طعاما للافطار .. كان صوتـها من بعيد يسأل :

- فطرت يا سيد ..
- ....
- ما ترد يا عرب .. واللا أقولك اسمع محمد فؤاد يغني لـك الحب الحقيقي ..

داست بإصبعها على زر " الكاسـيت " فـانطلق الصـوت .. خاطب سمعه وأحاسيسه ..

- ياه.. مين إللي عرفها إني بحـب محمـد فـؤاد.. قالـها لنفسه..

عاد صوتها يتسائل : بتقول حاجة ياسيد ؟ ! !

أسرع ينفي.. كانت قد جاءت أمامه بصينية مذهبة الأطـراف لامعة صقيلة.. عليها أطباق الجبن الرومي والبيض " الأومليت " المقلي بالزبد والفول المدمس بالزيت الحار والزيتون الأخضـو والشاي..

- إفطر معايا ياعرب..
- ما أقدرش..
- الله.. أوعى تكون بخيل.. لازم تجبر الزاد.. تلقـاك يـا ولداه على لحم بطنك..

زاغ بعينه كي يطمئن بأن لا أحد ثالثهما.. وقع بصـره علـى صورة معلقة على الجدار المواجه..

لفتاة ترتدي ثيابا بدوية ملامحها أقرب ما تكون لمحاسـن التـي دست له لقمة محشوة بالبيض سدت عليه سبيل الكـلام.. بـل تعثر في مضغها في حين خرجت بعض الحـروف مـن الفـم المملوء..

- مش معقول صورتك دي يا محاسن٠٠ دي أظـــن صـــورة خالتك٠٠
- صح٠٠ براوه عليك٠٠ وعرفتها لوحدك٠٠ دي أيام خلـــو البال٠٠
- أمال جوزها فين لا مؤاخذة؟ ! !

سخرت وهي تضحك : أكلته القطة٠٠ راح٠٠ خلص٠٠ قـــال جاي٠٠

انقبض قلبه٠٠ استعد للمغادرة٠٠ لم يكن قد شـــرب الشـــاي٠٠ قال : استأذن بقى !!!

- على فين يا سيد٠٠ كده أوام أوام٠٠ واخد الســـكة قياســـة كده٠٠
- عشان الشغل٠٠ وبعدين إيه أخبار العريس٠٠ مـــش أنـــت مخطوبة برضه٠٠
- آه مخطوبة٠٠ قول يا باسط٠٠ يـــا أبنـــي عريســـي اللـــي أحبه٠٠ ويحبني٠٠
- طب بالأذن بقى٠٠
- اقعد يا سيد ٠٠ خليك أجازة النهاردة ٠٠
- أجازة ٠٠ فاكراني موظف ٠٠ وكلام النـــاس ٠٠ خـــايف عليك ٠٠
- كلام ٠٠ كلام ٠٠ يوه ٠٠ أمتى يخلص بقى٠٠
- سلام بقى ٠٠
- اسمع يا سيد ٠٠ م الآخر كده أنا مش موافقة على العريـــس ده من زمان ٠٠ إيه قولك ؟!!
- قولي ٠٠
- آه قولك ٠٠ بأقول لك إيه يا سيد ٠٠ إياك تكـــون فـــهمت دلوقت ؟!!

أخرج سيجارة ما كاد يشعلها حتى جذبتها من فمه •• وكشوت عن أنيابها مثل قط شرس •• يدافع عن صغاره ••
قال : طب خلينا في موضوعنا •• خالتك توافق لو المعلم كلمها !؟

- توافق•• غصب عنها توافق •• أنا راضي وأنت راضي ••
- بس خايف ••

••••••

زادت حركة السوق •• انشغل الباعة مع الزبائن •• تكالب الناس فوق رأس المعلم سناري كان يزن لهذا •• يداعب تلك •• يرضي ذاك •• حتى انهى ما أمامه من الأسماك •• راح بعدها يبحث عن سيد •• في غيظ شديد كبح جماحه قال حين رآه:

- خبر ايه يا سيد •• رحت وقلت عدوا لي ••
- معلش يا معلم •• ظروف ••
- ظروف •• احنا لسه على البر ••أولك يحولك ••
- معلش يا معلم •• سماح النوبة دي ••
- كل ده عند محاسن •• العمشة على ما تتذوق تكون السوق خربت ••
- عشان خاطري يا أبو محمد •• سماح ••
- يا واد عاوزك تبقى خفيف •• اللي يخف يعوم ••
- عاوز أتجوزها يا معلم ••
- وماله •• اللي معاه قرش ابنه يزمر ••
- ما أنت عارف الفولة •• هوه فيه ما يستخبى عليك ••
- يعني عامل كام باكو ؟!!
- حوالي ريال ••

- حلو ·· عشرين ألف ·· ومنـــي شـــلن ·· يبقـــى ربـــع جنيه ··
- يا سلام يا معلم ·· دايما مغرقني بجمايلك ·· أردهـــا لـــك يوم فرح محمد ··

انسحب سيد جهة مقهى حليم بخطى وئيدة ·· جاءه الشاي علـــى عجل ·· فجأة لاحت حميدة ·· قالت : وبعدها لك يا ســـيد ·· قاطع طريق البت ·· بلاش إحنا الله لا يسيئك ··

- وأنا رايدها في الحلال يا ست حميدة ·· والحي أبقى مـــن الميت ··
- وعايزها تغدر بالغلبان اللي متشحطط في بلاد الناس ··

تدخل المعلم سناري واتسعت دائـــرة الحـــوار بعـــد أن تعـــالت الأصوات ·· قال :

- بشويش شوية على الجدع يا ست حميدة ·· احنـــا قصدنـــا شريف ··
- شريف ·· انتوا مين ·· سيد من سكة واحنا من سكة ··
- وبعدهالك في الغلط ·· الواد رايدها وهي رايداه ··
- بس دي مخطوبة يا خلق هوه ··
- مخطوبة آه ·· بعريس حيا الله جايب دبلة ·· وهوب طار بقى له كام سنة ··
- وكلام الرجالة ·· أقول إيه للناس ولأعمامها ··
- سبيها على الله وعلى العبد الضعيف لله اللى قدامك ·· سيد جاهز وله شقة تعاونيات وعنده كافة الأجهزة ومعاه قـــرش وواد كسيب ·· ومعلم ··

······

ازينت الحارة وامتلأ الشارع الكبير بالأعلام الملونة والمصـــابيح المضيئة ملأت الحبال وانطلق صوت الميكرفـــون بغنـــاء مـــها

صبري ومحمد طه ومحمد رشدي وبداره ·· وأعدت الكوشة بالزهور وتجملت العروس بفستانها الأبيض وتجلى العريس وبدا كالنجم ··

ما بين تصفير وغناء ·· صفير ورقص ·· تحيات ونقوط ·· من تجار السوق والصحاب والرفاق والأهل والجيران ·· ما كادت الليلة تنتهي برقص المعلم سناري بالعصا حتى جاء صوت من آخر صالة الأفراح المكيفة الهواء ·· ألهب الجو وملأه سخونة :

-جواز سيد من محاسن باطل ·· جواز سيد من محاسن باطل··

علت الدهشة وجوه الناس ·· التفت الأعناق جميعها كأنها اتحدت ناحية الصوت ·· حملقوا جيدا في صاحبه ·· وجدوه صوت العائد من بلاد الناس بعد طول غياب لم يمسح عن نفسه بعد وعثاء السفر ، ثم عاد يصرخ :

- الضرب في الميت حرام ·· كفاية ظلم يا ناس ··

اقترب منه سناري في دهشة : مين ·· أبو خليل ·· ازيك يا ابراهيم ·· حمد الله بالسلامة ··

كاد يتشاجر معه ، لكنه عاد لصراخه : محاسن راحت ·· واتنصب عليا في شقا العمر ··

ربت على كتفه : معلش يا ابراهيم كل شيء نصيب ··

وحن عليه وضمه إلى صدره ومسح دموعه ·· قال مودعا : المعوض مخلف يا أبو خليل ··

خرج صاحب الصوت شريدا وحيدا ، يردد : حسبي الله ونعم الوكيل ··

······

ومضى تلتهمه الطرقات يرقص كالطائر الذبيح ·· يغمغم بكلمات غير مفهومة ··يومها بكته المدينة ·· شاركتها

الأمطار فلم تنقطع طوال الليل وهي كأنما تمسح حروف شـــهادته الجامعية التي فردها في الميدان الكبير ٠٠ هائما علـــى وجهـــه يسلمه شارع لشارع ٠٠ يلتقط طعامه مثل القطط ٠٠ وتطـــارده حجارة الصغار ٠٠

الأهرام المسائي

٢٠٠٠/٨/٢٢

رائحة الأيام البعيدة

أنهى علـــى طبـق الفـول المدمـس بقطعـة الخـبز الأخيرة ٠٠ألقى بها إلى فمه ٠٠ جعـل يمضغـها بيـن بقايـا أسنان ٠٠ أشعل سيجارته اليتيمـة التـي بـدت ضـامرة مـن الوحدة ٠٠ ضم راحته في قسوة ليدك حصـون العلبـة التـي فرغت ٠٠ ألقى بها بعيدا على الأرض ٠٠
كانت المائدة مغطاة ببقايا صحف قديمة يلف لـه الباعـة فيـها حاجياته ٠٠ امتص بقايا كوب الماء ٠٠ وهو يغادر باب الشـقة قالت له زوجته التي أحنت رأسها للأمام قليلا ٠٠ وجاء صوتها ضعيفا :
- البيت مفيش فيه مليم ٠٠ ها تتغدوا إيه النهاردة ؟!!
أنقدها ما في جيبه ٠٠ نظر إلى الساعة فإذا هي معطلة ٠٠ سأل زوجته عن الوقت ، قالت : -
الراديو بيذيع أخبار سبعة ٠٠ فيه زيادة مرتبات ٠٠
ضحك ساخرا ، ذكرها بأنه ليس موظفا بالحكومة ، أدار ظـهره ناحية السلم ٠٠ كر درجاته ٠٠ رغم سنوات العمر مثل فتى فـى العشرين ٠٠ تدور فى رأسه رحى الأسئلة العديدة٠٠
السبيل الذي يقصده هو باب " ٢٠ " حيث يعمـل حمـالا فـي الجمرك ضمن العمالة غير المنتظمة٠٠ توقف قليلا أمام مدخـل الدائرة الجمركية٠٠ الباب الحديدي له مزلاج قـوي٠٠ رجـل شرطة جاف الملامح٠٠ مخبر سري يرمق الداخل والخـارج٠٠ أمين شرطة يمسك بالجهاز اللاسلكي٠٠
خلية نحل نشطة تبدو من بعيد٠٠ الكل يسـابق الكـل لإنجـاز عمله٠٠ التخليص على بضاعته الـواردة٠٠ الحصـول علـى " بوالص " الشحن٠٠ دفع الرسوم٠٠ انتظـار قـدوم الخبـير المثمن٠٠ البحث عن مستلخص٠٠ ينسل منصور داخلا بعـد أن أصبح ضمن مجموعة عمال٠٠ فارا من عيـون الشـرطة٠٠ لكونه لا يحمل تصريحا٠٠ فاليوم الخميس٠٠ سيتقاضى أجـره

الأسبوعي ٠٠ ليلقمه كف زوجته ٠٠ أمـــا ســـجائره ومصروفـــه فيعرف كيف يمكنه الحصول عليهم ٠٠ الأرزاق على الله ٠٠

٠٠٠٠٠٠

منذ أسكنته الحكومة في الحي الجديد الذي أنشـــئ علـــى أرض بحيرة جففت وتقلصت أطرافها ٠٠ وهو راض تماما الرضـــا ٠٠ يشعر بالإستقرار والطمأنينة ٠٠ صحيح الإيجار كبير لكنه كثـيرا ما يسعى إذا " هل " الشهر لسداده ولـــو علـــى حســـاب قـــوت العيال ٠٠ وهو يردد بينه وبين نفسه أغنية سيد درويش :

حد الله مابيني وبينك   غير حب الوطن يا حكومة

ولأنه دوما يحرص على عدم الاحتكاك بالشرطة ٠٠ فقـــد آثـــر السلامة – دوما – بعدم السهر في الأماكن التي تثير الشـــبهة ٠٠ وبالتالي فلم يتعرض طيلة عمره لأي أذى ٠٠

٠٠٠٠٠٠

الشقة التي حصل عليها هي كل رأس ماله ٠٠ حصل عليها بعـــد عناء شديد ٠٠ أبحاث عديدة ٠٠ وتـــل مـــن الأوراق وصـــور شهادات ميلاد العيال ٠٠ بيانات من المدارس ٠٠ صور بطاقاته العائلية والتموينية ٠٠ إيصال استمارة السكن ٠٠ شهادة بعـــدم الحصول على شقة من شقق التعاونيات ٠٠ بالاضافة إلى رقـــم التهجير إبان سنوات الحرب – لا أعادها الله – وغيرهـــا ممـــا طلبته الأبحاث الاجتماعية ٠٠ سأل نفسه كثيرا ٠٠ كيف يفـــرط فيها بالبيع وهي حصيلة سنوات عديدة قضاها يعيش في العشـــة التي اقترض ثمن خشبها الحبيبي – بالجمعيات المنزلية – وجمـــع العديد من " كراتين " المنطقة الحرة ٠٠ دفع أقساطها بردا قارسا وأمطارا غزيرة ٠٠ وليال سوداء واجه فيها الأمرين ٠٠ لكنـــه تحمل ٠٠ ولم يفعل مثلما فعل الغرباء الذين باعوا الشـــقق بعـــد الحصول على الآلاف ٠٠ وحصيلـــة التـــهريب عـــبر المنـــافذ الجمركية وعادوا إلى بلادهم وقراهم يحملون الغنيمة ٠٠

عشة منصور تحمل فوق جدارها الخشبي المتهرئ رقما كتب بخط غليظ .. وسط العديد من العشش التي كانت تلتجئ إلى جوار بيت أبيه الذي اكتظ بساكنيه ولم يعد فيه موطئ لقدم .. قرر الاستقلال والعيش فيها بغية الحصول على شقة تأويه وأولاده .. فقد كبر الجميع .. تزوج الاخوة .. وضاقت النفوس وتأزمت الأمور .. الحمام .. المطبخ .. مكان النوم ..

غمرته الفرحة إذ يتسلم مفتاح الشقة .. في منطقة خالد بن الوليد غربي المنطقة الحرة .. لكن ثمة مشكلة ظلت تؤرقه قبل ذلك .. من أين يدفع المقدم المطلوب .. قال لنفسه وهو يهمهم :

- ألفين جنيه يا منصور ياه .. دي العيشة ضنك .. الولاد كبروا .. الغلا بيكوي الجميع .. يا رب سهل .. نسوة الغرباء فكوا قيود أساورهن الذهبية .. وباعوها في شارع أسوان لدفع المقدم .. استلموا المفاتيح قبلي .. دا أنا بعت التليفزيون الأبيض والأسود .. الدولاب .. السرير .. وحاجات تانية .. لم يكتمل بعد نصف الألف .. وانت منصور محلك سر .. لك الله ..

يومها – يتذكره جيدا – انتهى من عمله .. جمع أولاده وزوجته ذات ليلة ممطرة .. قصد فيلا صديقه القديم الذي أصبح الآن من علية القوم .. صديق أيام العز والشباب الأول .. كانت هجمة تتارية .. هذا هو الملاذ الأخير .. وإلا سيذهب – بربطة المعلم – معتصما أمام مبنى المحافظة عاري الصدر .. رافعا راية العصيان والتذمر – ويا روح ما بعدك روح – دعا الله وهو يقترب من باب الفيلا الحديدي ..
هل صديقه طلال .. كالبدر ليلة تمامه متدثرا بعباءة ثقيلة .. حين رأى منصور تذكره على الفور .. أيقن أن ثمة شيئا ما قد

جاء به بعد انفصام دامت عراه أكثر من ربع قـــرن ٠٠ بـــادره قائلا :

- ياه ٠٠ منصور يا ألف مرحب ٠٠ تعالى يـــا منصـــور يـــا ريحة الأيام الحلوة ٠٠ الله يرحم أيام زمان ٠٠

- ٠٠٠٠٠

كان منصور أحد لاعبي الكرة المشهورين في النادي الكبـــير ٠٠ أيام كان لاعب الكرة يتقاضى الملاليم ٠٠

حينئذ نظر منصور إلى زوجته نظرة المنتصر فـــي زهـــو ٠٠ وطلال ينزل درجات السلم الرخامية ٠٠ احتضن منصور فـــي قوة ٠٠ أشار له بيده ووسع له الطريق إلى البهو الواســـع عنـــد مدخل الفيلا في حين تسابق الأولاد وتراصـــوا فـــوق المقـــاعد الوثيرة ٠٠ ينظرون حولهم في عجب وكأنـــهم فـــي حلـــم ٠٠ والزوجة توزع النظرات بين الأولاد الذين لا يكفون عن اللـــهو والعبث بالأثاث الفاخر الذي يعـــج بـــه المكـــان ٠٠ وزوجـــها وصديقه يتهامسان في صوت خفيض ٠٠ وقلبها يرتجف معلقـــا بحبال من الأمل والرجاء ٠٠

ازداد الحديث همسا ٠٠ في حين ترامى إلى أذن أحـــد الأولاد الذي أنصت في اهتمام بالغ ٠٠ فجأة قال الولد :

- صحيح يا أبه انـــت كنـــت لعيـــب كـــرة ٠٠ أمـــال فيـــن " الفكة " ٠٠ ولا يعني الفلوس " يوك " ٠٠

ضحك الرجلان ٠٠ في حين ربت طلال علـــى رأس الصبـــي الصغير وقال له :

- طبعا ٠٠ أبوك ده كان لعيب تمام ٠٠ ولـــد مـــا جـــابتوش ولادة ٠٠ بس دماغه بقى ٠٠

كان الطعام قد أعد ٠٠ امتلأت المـــائدة بـــأنواع عديـــدة مـــن الأطباق ٠٠ لم يزل طلال متدثرا بعباءتـــه ٠٠ وأحـــاط عنقـــه

" بالكوفية " تدر عنه هجمة برد الشتاء ‥ قـــال وهــو يضـم منصور إلى جانبه :

- البيت بيتك ‥ ثم ضحك وأردف :كل وبـــرق عينيــك ‥ أكلة واتحسبت عليك ‥

وانسحب تاركا صديقه وسط بنيه يتناولون طعامهم في نهم وتلـذذ حتى أتوا عليه تماما لكأنهم فتكوا به ‥ قال أحد الأولاد :

- خلوا بالكم يا عيال ‥ دي مش مائدة الرحمن ‥ رمضـــان لسه ما جاش‥

رد آخر : الحقيقة دي أكلة ملهاش حل ‥ الواحد يقعـــد يحلـم بيها ‥

قالت البنت الكبيرة رادعة : اتأدبوا بقى ‥ البيه يقول عليكـــوا إيه ‥محرومين ‥

علا صوت الصغيرة وهي تغني وتـــدق علـــى المـــائدة دقـات متتابعة : محرومين ‥ ولا محرومين ‥

أشار طلال لصديقه منصور الذي لحق به في المكتب ‥ فـــي حين همت الزوجة للحاق به فوكزها فعـــادت لمجلســها وســط الأولاد ‥ تهدىء من عبثهم وترمقهم في عجب وتدعـــو الله أن يوافق البيك

- دول عاوزين ألفين جنيه مقدم يا ســي طـــلال ‥ والعيــن بصيرة والأيد قصيرة ‥ بعت حاجات كثيرة ‥

- خلاص يا منصور ‥ بسيطة ‥ أنا تحت امرك ‥

- ربنا يقدرني وأسدهم ‥ بس ‥

قاطعه : يا سيدى ولا بس ولا حاجـــة ‥ إحنـــا اخـــوات يـــا راجل ‥

- طـــول عمـــرك " حنيـــن " وابـــن أصـــول ‥ الله يرحـــم والديك ‥

- تعيش يا منصور ·· خد دول دلوقت عشان المصاريف ·· الصبح بإذن الله تلقى واحد من طرفي عند الخزنة ·· ها يخلص كل حاجة ·· أبقى أشوفك ··

أدار طلال قرص التليفون وأخذ يتحدث ويصدر أوامره للطرف الآخر ·· ولما انتهى من حديثه ·· كان منصور قد استعد للرحيل ··

······

كان طلال فى الزمن البعيد ·· أحد مشجعى الساحرة المستديرة والمستطيل الأخضر ·· لا تخلو منه المدرجات فى أية مباراة ·· كما كان الملعب لا يخلو من منصور وصولاته وجولاته ·· ذكره طلال بالهدف الذى أحرزه " دبل كيك " فى مرمى الترسانة ·· ضحك منصور وهو ينظر لصاحبه بملء عينيه ورأى فيه مستودعا هائلا لذكريات زمان ·· فرغم الفوارق الإجتماعية بينهما إلا أن العلاقة بينهما كانت أقوى من أى شئ ··

- بالك يا منصور لو كان فيه تليفزيون زمان ·· كانت " اجوانك " تبقى أرشيف ·· دى تراث بس يا خسارة انت جيت فى زمن مش زمنك ··

رد منصور وهو يومئ برأسه : كل شئ نصيب ·· الحمد لله على نعمة الصحة ··

أردف طلال قائلا : كثير من زمايلك عملوا مصالح ·· وأنت ··

تدخل منصور فى الحديث مقاطعا : كل واحد بيحصل نصيبه ·· أنت عارف بقى ·· اتحملت مسئولية اخواتى بعد موت أبويا فى الشحن والتفريغ ·· " الشيمة " بتاعة " الكونتينر " إتحلت ·· كان هوه تحتها راح فيها ··

قال طلال مخففا : الله يرحمه يا منصـــور ٠٠ طــول عمــرك رجولة ٠٠

نظر إليه منصور فى ضعف : بس اخواتى لما كبروا ٠٠ خلــوا بيا ٠٠ ضيعت عليهم عمرى ٠٠

رد طلال ليهدئ منه : ربنا عمره مـــا يتخلــى عــن الإنســان الطيب ٠٠ وانت طول عمرك طيب يا منصور ٠٠

رد منصور : خايف أكون صدعتك ٠٠ أو ضيعت وقتك يا ســى طلال ٠٠ بس العشم بقى ٠٠

ضحك طلال فى ابتسامة عريضة : يا سيدى ٠٠ ربنـــا يــدوم المعروف ٠٠

وعاد طلال يخفف من جو الكآبة الذى اعترى صاحبـــه فبــادر قائلا :

- فاكر يا منصور البنت الطليانية اللـــى حبتــك ٠٠ ورحــت مسافر وراها نابولى ٠٠ تجرب نفسك هناك ٠٠

ضحك منصور وهو يستحضر من ذاكرته تلك الأيام البعيــدة ٠٠ وضخ فى الهواء دخان سيجارة قدمها له طلال :

- ياه يا سى طلال ٠٠ فكرتنـــى بــالذى مضـــى ٠٠ كـــانت شقاوة ٠٠ بس أنا زى السمك ٠٠ رجعت طوالى ٠٠
- كانت حلوة يا منصور ٠٠ بس ليه ما اتجوزتهاش ؟
- ماكنتش أقدر ٠٠ شرطها آخد جنسية طليانى ٠٠ واعيـــش هناك ٠٠ خفت على اخواتى ٠٠ رجعت ٠٠
- عموما أنا سعيد بـــك قـــوى يــا منصـــور ٠٠ ضـــرورى أشوفك ٠٠
- بإذن الله يا سى طلال ٠٠

٠٠٠٠٠٠

مضى وقت طويل انتهى منصور من عمله الشاق ٠٠ راح يسند ظهره إلى جدار المقهى يستدفئ فيها الشمس ٠٠ يرقـــب مقـــدم

رجل فى زى الشرطة وهو يستوقف زميلا له وراح يفتشــه ٠٠ والرجل يرجوه بأن يتركه ٠٠ فى حين جاءه زميله عبد المولــى بكوب من الشاى الساخن ٠٠ وثمة فلول للسيارات تمرق خارجة من باب " ٢٠ " البعيد ٠٠ وبدا أن ثمة هدوء بدأ يســـرى فــى المكان ٠٠

راح منصور فى وسنة من النوم ٠٠ رأى تلالا من خلف مــووج خضراء ٠٠ عيون مياه انبثقت ٠٠ وتبدو بعيدا صحراء مترامية الأطراف ٠٠ ثم بانت زروعا سرعان ما أنبتت ٠٠ ثمة امـــرأة تبدو قادمة من بعيد ٠٠ تفحصها جيدا ٠٠ فإذا هـــى الإيطاليـــة الحسناء ٠٠ هم بأن يقبلها كعادته حين كـــان يلقاهــا ٠٠ إلا أن ذراع عبد المولى راحت توقظه :

- اصحى يا منصور ٠٠ الباشا وصل ٠٠ يـــا الـــلا عشـــان القبض ٠٠

فز منصور من نومه كمن لدغته عقربة ٠٠ سار إلـــى ســـيارة الباشا الذى راح يلقم كف كل واحد أجره ويشير بيـــده المثقلـــة بالساعة الذهبية والخواتم المتلألئة فى أصابعه :

- السبت الصبح بإذن الله ٠٠ الشغل عند الحاويات ٠٠ ثمانيـــة تمام عشان الكشف ٠٠ قطع غيار " مدبوح " أوعى تتأخر يا منصور ٠٠ أقطع رقبتك ٠٠ أنت الريس عشـــان حســـنين مسافر ٠٠

وافقه منصور وهو يمضى كالطفل فرحا بما معه من نقـــود ٠٠ وزملاء العمل يسبقونه ناحية باب الخروج ٠٠ وثمة أنوار تبـــدأ فى نشر ضيائها فى الميناء ٠٠

برز المخبر السرى الذى داعبهم جميعا :

- أنا سايبكو النهاردة عشان القبض ٠٠ كل ده لوجـــه الله ٠٠ السبت يحلها الحلال ٠٠

ألقمه أحدهم خمسة جنيهات ٠٠ فى حين قال منصور لنفسه وهو يسرع منسحبا للخارج :

- يا آكل قوتى ٠٠ يا ناوى على موتى ٠٠ يوم السبت أعمـــل تصريح من قسم المينا ٠٠ ولا " الحوجة "

الأهرام المسائى

٢٠٠٠/٥/٢٨

المطر .. صديقي القديم

- المسافة من بلقاس لأبو دشيشة أكثر من عشرة كيلو ..
قلتها لنفسي وأنا أواجه مأزقا حقيقيا لامنـــاص منـــه.. إذ أجـــد المطر المنهمر منذ الصباح لم ينقطع إلا سويعات قليلة.. إنـــه يقطع على السبيل للوصول إلى القرية التي تـــم تـــهجيرنا إليـــها عقب حرب ٦٧ .. الطريق ترابي تحـــول إلـــى تـــلال مـــن الوحل.. كيف الوصول إليها.. ونقودي قد نفدت بعد أن ضمر جيبي ولا قدرة على العودة إلى المنصورة حيث أقطن بـــالقرب من مدرستي الثانوية..
رغم شدة انهمار المطر إلا أنني قـــد صككـــت أذانـــي دون الإنصات لنصح الأصدقاء بعدم الســـفر .. أصدقـــائي الذيـــن يتوزعون في حجرات صغيرة بشقق كفـــر البدمـــاص وعزبـــة الشال و عزبة عقـــل وجديلـــة وعمـــارات الشـــناوى بشـــارع الأفغانى .. أصدقائى بحكم خبرتهم أسدوا لى النصح .. لكننى صممت .. لعلهم لا يعرفـــون أن قلـــة المصـــروف وضعـــف الموارد وخراب الميزانية كانت الدوافع الكبرى لذلك .. أقلنـــى الأتوبيس إلى بلقاس .. عرفنى المحصـــل دون أن أبـــرز لـــه الإشتراك المجانى عبر خطوط شرق الدلتا الذى تمنحه الشـــئون الإجتماعية لأبناء المهجرين أمثالى .. ضحك فـــهو يعرفنـــى ، ولكنه تجهم قليلا وهو يسألنى بعد أن أنهى مهمتـــه مـــع ســـائر الركاب : ازاى حتروح " أبو دشيشة " .. الخط مش شـــغال .. والطريق وحل .. والدنيا برد ..عبر شوارع بلقـــاس صـــرت أثب مثل أرنب بين الأرض الجافـــة والبحـــيرات الضحلـــة أو العميقة .. حتى انتهيت الى رأس الكوبرى المؤدى إلى الطريـــق الذى تحول إلى طين لازب ..
مر بعض وقت .. لم تظهر فى الأفق وسيلة نقل اللهم إلا تلـــك الجرارات ذات العجلات الضخمة تخوض غمـــار الوحـــل دون عناء تتأرجح يمينا ويسارا وتعاند دون الســـقوط فـــى المجـــرى

المائى المسمى ترعة أو المصرف الصغير الذى تحول إلى مـاء راكد تعلوه زرقة مبهمة وما تذروه الرياح من أوراق الشجر ٠٠ لم يبلغ اليأس منى أى مدى فقد عقدت العـزم علـى مواصلـة الجهاد والتعلق بأى وسيلة ٠٠ شد انتباهى عجوزا تكوم تحـت شجرة كان المطر كان انقطع وبـدت الشـمس حانيـة قـرب الوداع ٠٠ طربوشه الأحمر الذى بدا طرفه الملامـس لجبهتـه يمثل خيطا من سواد ٠٠ ضئيلة قامته التى لفها فى دثار أسـود ، جاء صوته :

- لو رايح الستامونى يا أفنـدى خدنـى معـاك ٠٠ أنـا زى أبوك !!!

رددت بعطف : حاضر يا مولانا ٠٠ إن شاء الله ٠٠

عاد إلى دثاره وحشرجة صدره تعلن عنه كل حين ٠٠ اعتـدل وهو يخرج من وسط ملابسه علبة دخـان ٠٠ حشـى ورقـة " البفرة " منها ، بلها بطرف لسانه ثم أشعلها وجعل ينفس دخانها فى انسجام ٠٠ استهوتنى صورته إذ مد ساقا نحيلة كشفت عـن جوربه المتهدل حتى الكاحل ٠٠ وبدا الحذاء دون لون قد علـق الطين به ٠٠ مد يده كى أساعده على النهوض ٠٠ قصر قامتـه ومعطفه الداكن المشبع بماء المطر كادا يضحكـانى ، لـولا أن جاء صوته :

- أنا رميت حمولى عليك ٠٠ انت زى ولادى ٠٠ أصل أنـا بقيت جد ٠٠

- على بركة الله ٠٠ربنا يسهل وتيجى توصيلة ٠٠

فرد شمسية بهتت ألوانها وتكسرت بعض ضلوعها وأشار لسـائق جرار عابر لم يلتفت السائق ٠٠ زدناه استعطافا ، صم أذنيـه ، لحقته لعنات العجوز انتبه٠٠ خاطبنى :

- اوعاك يا أستاذ منه ٠٠ دا صنف نمرود ٠٠ عاوز يركـب على حسابك ٠٠ سيبك منه ٠٠

برقت عيناى ·· صرت أرقبه ولسانه الحاد لا يكف عن السباب : سواق واطى ··
نادانى السائق كى الحق به ·· أثنانى العجوز عن تلبية النداء ·· قال فى لغة فظة أغاظتنى :

- بقى عاوز تسيبنى فى المطرة لوحدى ·· تبقى بنى آدم مش أصيل ··

ازدادت حمرة الغيظ فى وجهى ·· ولكنى تحاملت على نفسى ، قلت:

- باين عليها هاترسى الواحد يأخذها مشى ··
- ايدى على كتفك ··

تعجبت كيف يكون السير معه ·· والليل قد اقترب من اقتناص اللحظات الأخيرة من النهار ·· عاد لجلسته وقبل أن يلتف فى دثاره جاء صوت عابر ملقياً السلام على وخاطب زميله الذى خاض الطريق معه ·· وكان ينظر إلى العجوز :

- عارف كوم العظم ده ·· رجل ثعبان ·· ما هوش م الناحية وجيبه مليان فلوس ··

جاءت سيارة مترنحة بين خطوط الطين والوحل ·· فز العجوز فى سرعة عجيبة ·· اشتبك مع سائقها بسلاطة لسانه وسب الركاب وعايرهم بعدم النخوة إذ لم يكن بوسع أحدهم التضحية والتنازل عن مكانه لعجوز مثله ·· وانتهت بالسائق يدسه بجواره من جهة الباب ··
قال له السائق : رايح فين يا أبه الحاج ··

- معاك ·· طوالى لآخر الخط ··
- أنا رايح لحديت الشوامى بس ··
- معاك ·· اطلع دوغرى ··

قلبت أمرى مثلما قلبت كفاى فى عجـــب ٠٠ وحمـــدت الله ٠٠
وجعلت اتابع السيارة فى ترنحها وحملها الثقيل ٠٠ وحمـــدت الله
أكثر بأننى لم ألحق مكاننا بوسط هذا الحشد الذى على متنها ٠٠
احسست بأننى تخلصت من عبء ثقيل ٠٠ ولكن ضميرى عـــاد
يلهبنى بسياطه ، كيف لى أن أهنأ بتخلصى من عجوز يســـتحق
المساعدة ؟!!

علا صوت آذان المغرب ٠٠ كانت السماء قد تجهمت بالســحب
الرمادية التي تلقفت الشمس وأوسدتها الجهة الأخـــرى ٠٠ ازداد
إحساسي بالنفور والتذمر من تلـــك الحماقـــة التـــي أصـــررت
عليها ٠٠ انهكني البرد ٠٠ وبلل المطر ملابسي ٠٠ وتـــهرأت
كتبي ٠٠ ونفد صبري ٠٠ وجعلت أحاول أن أستعيد قدراتي كي
استعد بإصدار القرار ٠٠

فجأة ٠٠ انشقت الأرض عن صديقي محمد عبـــد الكريـــم ٠٠
احتضنني بشدة ٠٠ وسألني عن حالي ٠٠ كنت قد افتقدته لأيـــام
لم نلتقي معا عبر الأتوبيس الـــذي يـــأتي مـــن الســـتاموني ٠٠
القصبي ٠٠ عزبة عباس ٠٠ أبـــو دشيشـــة ٠٠ الشـــوامي ٠٠
الزهيري ٠٠ الكردود " بلدته " ٠٠ الســـماحية ٠٠ بلقـــاس ٠٠
حتى المنصورة ٠٠ قال وهو يجاهد فرحته باللقاء ٠٠

- هدومك مبلولة يا أستاذ ٠٠ بقى لك زمن واقف ٠٠

أومأت برأسي ، داعبته : ومش باين أي توصيلة ٠٠

ضمني إلى صدره من جديد ، وقـــال : لابـــد مـــن التوصيلـــة
الرباني ٠٠ " موتورجل " ٠٠

تبادلنا الضحكات ٠٠ قاس لي المسافة قائلا : المسافة للكـــردود
زى خط الاستواء ٠٠ تقسم المسافة نصفين ٠٠

أعطاني شالا فلسطينيا أتدثر به ، رفضـــت أول الأمـــر ، قـــال
بصوته الجميل :

- عيب يا سي عمر ٠٠ احنا اخوات ٠٠ ولا إيه ٠٠

- كريم يا أبو كريم ٠٠ ربنا اللي يعلم ٠٠

بدأنا السير دون أن يعترينا أي يأس ٠٠ نخوض في حماس تلال الوحل وسط ظلام دامس ٠٠ كانت السماء بلا قمر أو نجوم ٠٠ صادرنا -معا - اى حرص نبتغيه ٠٠

الطريق خال تماما من أي بناء ٠٠ إلا من تلك المقاهى العشوائية التى ألقيت على رؤوس الكبارى ٠٠ تبزغ منها الأضواء الكليلة كأنها متعبة من أثر السهر ٠٠ يضحك محمد دوما من تعبيراتي ٠٠ وتلك الجمل الأدبية التى يصفها بأنها مشروع أديب كبير ٠٠ قال :

- يا أستاذ حيلك شوية ٠٠ إيه الشعر ده كله ٠٠ تكونش شوقى باشا ولا حافظ بك ٠٠

قلت : إيه رأيك لو ندخل قهوة ساعة ما المطرة تنزل ٠٠

قال : يا راجل ٠٠ دول شويه صغار ونوصل ٠٠ أنا شايف نور بلدنا أهوه ٠٠

لم ألمح أى بصيص لأى ضوء ٠٠ قلت لأخفف طول المسافة واستعد معه لرخات مطر محتمل ٠٠

- قبل ما تيجي كان واقف معايا راجل عجوز ببالطو قديم وطربوش أحمر ٠٠

أشار بيده : كفاية متكملش ٠٠ عارفه ٠٠ ده راجل نورى وكهين ٠٠ أوعى يكون خد منك فلوس ٠٠ ده راجل لسانه زفر ٠٠

عدت أقول : عاوز يروح الستاموني ٠٠

قاطعنى : راجل مش من الناحية خالص ٠٠ راجل بيسلف الناس فلوس " بالفايظ " ٠٠

- بس باين عليه غلبان يا أخى ٠٠

- ده انت اللى غلبان ٠٠ ده راجل معاه " مالية " تمام ٠٠ وغاوى يستعبط ٠٠

استمررنا فى السير وسط الأوحال ٠٠ نتساند فى بعض الأحيان أو نشد أزر بعض ٠٠نضحك كى نملأ الفراغ من حولنا لنبدد وحشته ٠٠ أو نمضغ الحسرات فى صورة نكات ظريفة ٠٠
قال : خلاص يا سيدي ٠٠ الكردود أهى نفوت على دارنا نغسل ونتعشى وبعدين نفكر ٠٠
قلت أضاحكه : آه يا دحلاب ٠٠ تسحب فيا حبة حبةُ لحد داركو ٠٠ وأبقى أنا فى الطل ٠٠
أشار لصدره : أنا دحلاب ٠٠ لاممكن أسيبك ٠٠ بس تشوفك أمي ٠٠
- أمك ٠٠ قلتها بتعجب ٠٠
قال : أصل أنا حكيت لها عنك ياما ٠٠ قالت نفسي أشوفه ٠٠
قلت فى سخرية : ما تشوفش وحش ٠٠ يعنى ها تشوف الباشا زيدان يعنى ٠٠ حيا الله ٠٠
عاد يكركر ضحكته الجميلة : يا سيدي ٠٠ أحقق لأمى حاجة نفسها فيها ٠٠ثم إيه يعيب الباشا إلا جيوبه ٠٠ جعان زى حالى ٠٠ وهدومه مبلولة " شرحه " ٠٠ و ٠٠
- بس ٠٠ بس ٠٠ انت خليت فيها باشوية ولا حتى ٠٠
عبرنا كوبرى " الكردود " يمينا ٠٠ الليل دامس تماما ٠٠ لا شىء سوى " الكلوبات ذات الرتينة " على رؤوس الحوانيت الصغيرة نلقى على من بداخلها السلام فيأتينا النداء بالقدوم ٠٠ شارع بعد شارع حتى كنا أمام دارهم ٠٠ دق الباب وهو يصفق بكفيه عند الدخول ٠٠
- يا أهل الله ٠٠ سلاموا عليكم ورحمة الله وبركاته ٠٠
انفتح الباب وجاء صوت أخته التى فى يدها لمبة جاز نمرة عشرة٠٠ رحبت وجاءت فى أثرها أمه ٠٠ تمسح عن كفيها أثو العجين بطرف ملابسها ٠٠ ضمته إلى صدرها ٠٠ وسألت :
- أكيد ده سى عمر ٠٠ ولا أنا غلطانة ٠٠

- لأ يا أمه ·· هوه بعينه ··

قبلت كتفى اليمين ·· وتساءلت عن المطر ·· شـــعت رائحـــة الخبز من جهة البيت القبلية عند الفرن ·· أمرتنا بالمثول تمامـــا لأوامرها ·· وأحضرت أرغفة " القبوري " مع عســـل النحـــل والسمن البلدى ·· وقالت فـــى لهجـــة جميلـــة : تصبـــيرة يـــا شباب ··

بدلنا ثيابنا قليلا ·· بينما أتت بعد حين تحمل حلـــة " المعمـــر " ساخنة ·· تضعها وسط الطبلية ، وتأمرنـــا بتنـــاول العشـــاء ، وقالت :

- يا سى عمر ·· كل وبرق عينيك أكلة واتحسبت عليك ··

شكرتها ·· ومحمد يدس لى قطع اللحم أمامى ·· قالت ثانية :

- تبات هنا يا قلب أمك ·· محمد أخـــوك وانـــت أخـــوه ·· البنات اخواتك ·· يا ترى أمك عاملة إيه دلوقت ··

طمأنتها : هى ما تعرفش إنى رايح النهاردة ·· كنت عاملـــــها مفاجأة ··

- وده وقت مفاجأت ·· برضه قلب الأم دليلها ·· لساك هـــا تروح أبو دشيشة ··

ضحك محمد وهو " يزغدنى " لتناول المزيد مـــن اللحـــم التـــى ينتشلها من بين الأرز باللبن ، قال : دماغه ناشـــفة ·· عـــاوز يروح ·· ما تقوليش وراه الديوان ولا ها يفك الأسرى ··

انتهينا من العشاء ·· قالت أم محمد لولدها :

- بخاطره ·· هات حمارة خالك صالح لأخـــوك عمـــر ·· وانت اركب حمارتنا ··

······

لم يمر وقت طويل حتى كنا على مشارف الشوامى ·· لم تمـــر بنا سيارة ، جاء صوت ينادى :

- الحقونى يا خلق هوه ··

عرفت الصوت ، أخبرت صديقى ، قال : وماله ٠٠ سيبه ٠٠ راجل مرابى ٠٠
جاءنا سبابه ٠٠ واسرع جهتنا يكاد ينزع أحدنا عن " أتانه " وأمرنا أن نركب ردف بعض على أن ندع له واحدة يمتطى ظهرها ، صرخ محمد : سيبك منه ٠٠ إياك يموت ٠٠
لكز كلانا بطن أتانه فعلا صوت فظاظة سبابه ٠٠ كدنا نتعثر حتى بلغنا أبو دشيشة ٠٠ إذ يلفها صمت وهدوء ٠٠ مقهى الباجورى يلفظ آخر رواده و " الكلوبات " فقط تعلن عن يقظته ٠٠ ألقينا السلام ٠٠ رد الخفير شافعى ٠٠
لما وصلنا إلى مقر إقامتنا ٠٠ أصررت على استضافة صديقى ٠٠ خاصة وأن المطر قد أخذ فى الانهمار رويدا رويدا ٠٠ قال محمد :
- قرايبك زمانهم ناموا ٠٠ سلاموا عليكوا ٠٠
ودعته على مضض ٠٠ ووجدت دمعى ينهمر ٠٠ والسماء لم تبخل عن العطاء فصارت تصب المطر وكأنها قربة مفتوحة ٠٠
وغاب محمد عبد الكريم ولم أره بعدها ٠٠ كان ذلك أبعد من مسافة ثلث قرن تبدلت فيه كل الأشياء ٠٠

الأهرام المسائى

٢٠٠٠/٥/١٦

- محمد عبده العباسى ٠
- موجه صحافة / مديرية التربية والتعليم ٠
- نشرت أعماله فى جريدة الأهرام المسائى / القاهرة / الوفـد / العربى الكويتية / المجلة العربية السعودية ٠
- دراسات ومقالات بجريدة الوفد ٠
- جائزة من الادارة العامة لرعاية المواهب ٠ الهيئة العامة لقصور الثقافة ٠
- له تحت الطبع :

– الرجل الذى بقى وحيدا – قصص ٠
– باب ٢٠ – رواية ٠

فهرس

إصدارات " نوارس " فرع ثقافة بورسعيد